عفاريت المحمل المصري

عصر سلاطين المماليك

(٦٤٨ – ٩٢٣هـ/١٢٥٠ – ١٥١٧م)

دراسة تاريخية

إعداد

د. مسعود محمود علي عبادي

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد

بكلية الآداب بجامعة جنوب الوادي

عفاريت المحمل المصري عصر سلاطين المماليك" ٦٤٨ – ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧م" دراسة تاريخية

مسعود محمود علي عبادي

قسم التاريخ, كلية الآداب, جامعة جنوب الوادي, قنا, مصر.

Masoud.abbady@gmail.com

الملخص :

تأتي أهمية دراسة هذا الموضوع المعنون بـ :" عفاريت المحمل المصري عصر سلاطين المماليك ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م" حيث كان الحج وحماية الحجاج هو سلاح المماليك للتدخل في الشأن الحجازي, وجاء احتفال عفاريت المحمل ضمن السياسة الواسعة لاحتفالات المماليك بموسم الحجيج أداة للتعبير عن سيادة المماليك على الأراضي الحجازية وإعلان وإعلام عن توجههم السياسي هناك حيث البحر الأحمر وتجارته والحرمين ومكانتهم. وجاء هذا البحث محاولة في إظهار السبل والأدوات التي اتبعها المماليك لضم بلاد الحرمين متخذين من الحج واحتفالاته المتمثلة في المحمل ودورانه بسبل متعدد أساس لذلك, فبحث في البداية العوامل التي ساعدت على ظهور عفاريت المحمل, ثم تناول أصل عفاريت المحمل ووجودهم وهل كانوا موجودون قبل العصر المملوكي أم لا؟ ثم عرج البحث لرصد أماكن احتفالات عفاريت المحمل وزمنها وبعد ذلك وصف المظاهر الاحتفالية لعفاريت المحمل , كما تعرض لمناقشة مسألة انحراف عفاريت المحمل عن هدفهم عصر المماليك الجراكسة. ومحاولة تحليل ذلك حتى يمكن وضع خطوطه تحت أفكار معينة، وذلك للوصول إلى هدفه ووسيلته وأدواته في هذا العصر ،

ومحاولة التعرف على آثاره من نواحٍ مختلفة، علاوة على قياس دوره في توجيه الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية

الكلمات المفتاحية: المحمل المصري ، سلاطين المماليک، عفاريت المحمل، احتفالات، دوران.

Afareet of the Egyptian Mahmal during the Mameluke Sultans' Era (648-923 H/ 1250-1517): A Historical Study

Masoud Mahmoud Ali Abbady

Department of History, Faculty of Arts, South Valley University, Qena, Egypt

Masoud.abbady@gmail.com

Abstract:

Significance of this study titled: Afareet of the Egyptian Mahmal during the Mameluke Sultans' Era (648-923 H/ 1250-1517): A Historical Study stems from the premise that Pilgrimage (Hajj) and protection of hajjes was the Mamelukes' weapon to interfere in the Hijazian affairs. Moreover, the Mamelukes' celebration of the mahmal's Afareet was among the extensive policy of the Mamelukes' celebration of the Pilgrimage (Hajj) season as a tool for expressing the Mamelukes' sovereignty over the Hijazian territories as well as a way of announcing, asserting and circulating their political proclivity there where there was the Rea Sea, its trade, the Meccan and the Medina Holy Harams and their significance. This study aims as an attempt to illuminate the methods, techniques and tools adopted by the Mameluke to join the Hijaz region to their control manipulating Hajj and its celebrations represented in the Mahmal celebrations and its circulation as a basis for such control. Thus, the researcher firstly scrutinizes the factors that led to the emergence of Mahmal's Afareet. Then, the researcher scrutinizes origin of them through answering the question "Did the Mahmal's Afareet exist before the Mameluke Era or not? Then, this article seeks to monitor and trace places and

times of the celebrations of the Mahmal's Afareet. After that, the researcher describes the celebration aspects for that event. Moreover, this article tackles deviation of the Mahmal's Afareet form their main objectives in the Jarkasian Mamelukes' Era as well as providing an attempt to analyze this in order to illuminate the main real objective, its tools and its techniques during this age. in addition, this research provides as attempt to determine effects of this event from various perspectives in addition to measuring its role in directing political, economic, social and religious events.

Keywords: The Egyptian Mahmal, the Mameluke Sultans, Afareet of The Mahmal, Celebration, Circulation.

مقدمة

يرتبط الحديث عن الحج خلال العصر المملوكي ارتباطًا كليا بمحاولات المماليك لصبغ حكمهم بصبغة شرعية؛ لكي تمكن لهم من بسط نفوذهم، وتوطيد حكمهم، وسنحت لهم الفرصة بأنْ ظهرت مصر على مسرح الأحداث بعد انتصارهم على المغول بمعركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م. ونادى سلطانها بإحياء الخلافة العباسية في مصر، ولدعم نفوذهم في الحجاز، وفرض حماية الحرمين الشريفين، وتقريب علماء الدين إليهم، وإقامة المؤسسات الوقفية المختلفة من منشآت دينية وتعليمية إسلامية لخدمة سكانها والوافدين إليها. كما أقاموا علاقات مع القوى السياسية المجاورة مما أسهم في تعزيز الجوانب الحضارية فيهما. مما جعلتهم يبدون في صورة جلية أنَّهم حريصون على تعزيز الدين الإسلامي كضرورة سياسية؛ لتبرير حكمهم. وغدت مسألة حماية الحرمين الشريفين مهمة جدًّا لدولة المماليك الناشئة؛ لذا نرى توجه أنظار السلاطين إليها، لكونهم أصحاب الحق الشرعي بها وعملا بتقليد الخلافة لهم بحكم البلاد التابعة لها، مما أسهم في ظهورهم السياسي، ولإكمال ذلك لا بُد من بسط نفوذها على البحر الأحمر حيث طريق التجارة كبعد اقتصادي، وكذلك على الحجاز حيث الحرمين الشريفين كبعد ديني يقنع العامة بسلطنتهم. وهو ما ساعد على استقرار أوضاع الحجاز ومدى رضا عامة السكان على حكم المماليك والثقة بقوتهم السياسية والاقتصادية وهدفهم الديني الحفاظ على الحرمين الشريفين. وصارت مسألة حماية الحجاج من أشراف الحجاز أحد المحاور الرئيسة في السياسة المملوكية تجاه الحجاز؛ للحفاظ على حمايتهم للحرمين وهي السياسة التي لم تقتصر على سلطان

بعينه، بل اجتهد السلاطين المماليك في تثبيتها ولم يرض أي سلطان مملوك أن ينال أحد هذا الشرف سواهم.

ومن هذا الجانب تأتي أهمية دراسة هذا الموضوع المعنون بـ :" عفاريت المحمل المصري عصر سلاطين المماليك ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م" حيث كان الحج وحماية الحجاج هو سلاح المماليك للتدخل في الشأن الحجازي، وجاء احتفال عفاريت المحمل ضمن السياسة الواسعة لاحتفالات المماليك بموسم الحجيج أداة للتعبير عن سيادة المماليك على الأراضي الحجازية وإعلان وإعلام عن توجههم السياسي هناك حيث البحر الأحمر وتجارته والحرمين ومكانتهم. وجاء هذا البحث محاولة في إظهار السبل والأدوات التي اتبعها المماليك لضم بلاد الحرمين متخذين من الحج واحتفالاته المتمثلة في المحمل ودورانه بسبل متعددة أساس لذلك، فبُحثَ في البداية العوامل التي ساعدت على ظهور عفاريت المحمل، ثم تناول أصل عفاريت المحمل ووجودهم، وهل كانوا موجودين قبل العصر المملوكي أم لا؟ ثم عرج البحث لرصد أماكن احتفالات عفاريت المحمل وزمنها وبعد ذلك وصف المظاهر الاحتفالية لعفاريت المحمل، كما تعرض لمناقشة مسألة انحراف عفاريت المحمل عن هدفهم في عصر المماليك الجراكسة. ومحاولة تحليل ذلك حتى يمكن وضع خطوطه تحت أفكار معينة، وذلك للوصول إلى هدفه ووسيلته وأدواته في هذا العصر، ومحاولة التعرف على آثاره من نواحٍ مختلفة، علاوة على قياس دوره في توجيه الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية.

<u>وعن الدراسات السابقة:</u> فإن أهمية الموضوع تنبع من جدته، إذ لم يسبق دراسة عفاريت المحمل المصري في العصر المملوكي في أي دراسة مستقلة

سواء العصر الأول أم الثاني، ولم يزد من تناول دوران المحمل والاحتفالات الخاصة به عن ذكر خبر عفاريت المحمل عرضًا. كما أن من المهم الإشارة إلى أن هذا الموضوع يخص عفاريت المحمل من الناحية التاريخية، وليس من الناحية الأدبية أو الفولكلورية، فهناك فرق واضح بين الأمرين، ومن ثم يُعنى الموضوع بتتبع مظاهر الاحتفال بعفاريت المحمل من زاوية توطيد النفوذ.

- **العوامل التي ساعدت على ظهور عفاريت المحمل**

لكل إقليم وكل عصر حياته العامة التي قد يشترك فيها عصران أو بيئتان ولا شك أن العامل الزمني هو المحك الرئيس للتعرف على خصائص بيئة من البيئات من خلال مظاهر حياتها العامة، فشيوع بعض المظاهر أو تلاشيها يعين في تحديد سمات العصر بحيث يمكن القول بوجود مظاهر محددة تميز حياة الناس في العصر الحجري أو عصر البخار أو غيرها. ومع ذلك فلا يمكن اغفال تفاعل العامل الزمني مع خصائص البيئة الجغرافية والطبيعة البشرية ولم يكن مظاهر احتفالات المصريين في العصر المملوكي بدوران محمل الحاج، وما أضافوه من رسوم جديدة عرفت باسم "عفاريت المحمل" تخرج عن هذا المضمون ولعل من المفيد أن نشير إلى اهتمام الحكام والمحكومين بالاحتفالات في مصر ودلالات ذلك قبل أن نتناول موضوع "عفاريت المحمل" بالتفصيل باعتبارها كانت احتفالًا من احتفالات كثيرة عاشها المجتمع المصري في العصر المملوكي، وليكن مدخلنا هنا ما ذكره أحد الرحالة المشهورين عن حب المصريين للاحتفالات، وهو ابن بطوطة الذي زار سلطنة المماليك (مصر والشام والحجاز) زمن

الناصـــر محمد بن قلاوون(٦٩٣-٧٤٢هـ /١٢٩٤-١٣٤١م)[1] بالتحديد في النصـف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشـر الميلادي. حيث قال إن أهل مصر "... ذو طرب وسرور ولهو..."[2] كما أن الرحالة ابن الصباح الأندلســـي[3] الذي زار مصـــر في نهاية عصـــر المماليك البحرية ومرحلة

---

(1) هو أبو الفتوح ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي النجمي الألفي سلطان الديار المصرية، (٦٩٣-٧٤٢هـ /١٢٩٤-١٣٤١م) وقد حكم على ثلاث مرات متقطعة حيث جلس على تخت الملك بعد قتل أخيه الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون في يوم الاثنين رابع عشر المحرم، وقيل: يوم الثلاثاء خامس عشر المحرم، من سنة ١٢٩٣ – ١٢٩٤م، وقد ولى الحكم حينئذ وعمره ١٠ سنوات عقب مقتل أخيه الأشرف قلاوون ولكنه كان حكما صوريا ، فعزل وحكم الفترة الثانية من٦٩٩-٧٠٩هـ/ ١٢٩٩ – ١٣٠٩م، والفترة الثالثة من٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م حتى وفاته سنة٧٤٢هـ/ ١٣٤١م. ينظر : ابن حبيب: الحسن عمر بن حبيب (-٧٧٩هـ/١٣٧٧م): درة الأسلاك في دولة الأتراك، تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتب القومية، القاهرة، ٢٠١٤م، ويعالج الكتاب أحداث الفترة من ٦٤٨-٧٧٠هـ. وهي فترة حافلة بالأحداث والتطورات من انتصارات في الخارج على الصليبيين والتتار والنوبيين من ناحية، وأمن واستقرار ورخاء الداخل من ناحية أخرى. وقد أخذت فترة الناصر محمد نصيب كبير من الكتاب.

(٢) ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت. ٧٧٩هـ/١٣٧٧م): رحلته، المعروفة بـ "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب السفار"، تحقيق محمد السعيد الزيني، المكتبة التوفيقية، (القاهرة)، د.ت صـ٣٢.

(٣) ابن الصباح: مؤلف رحلة حجازية بعنوان " أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار" يسمي نفسه في رحلته بالحاج عبد الله بن الصباح، ولا نجد له ذكراً في كتب التراجم، لأنه لا ينتسب إلى طبقة العلماء أو الفقهاء أو الأدباء، وكل ما نعرفه عنه مقتبس من رحلته. وأول ما نعرفه عنه من خلال هذه الرحلة أنه ولد ونشأ في مدينة شاطبة التي كان قد استولى عليها وعلى مدن شرق الأندلس خايمي الأول في منتصف القرن ٧هـ/ ١٣موقد ==

جاء للحج في نهاية القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي بعدما صارت بلده شاطبة وكثير من بلاد الأندلس مدجنة والمسلمون فيها مدجنون . وقد جاء لمصر التي منها ذهب للحجاز ثم بيت المقدس في عصر الظاهر برقوق أي في نهاية القرن ٨هـ/١٤م ؛لأنه حينما تحدث عن القاهرة وما فيه وخروج ركب الحجيج واحتفالاته ... وغير ذلك. ينظر : عبدالله الصباح : أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار ، نشر وتحقيق محمد بنشريفة (الرباط) ٢٠٠٨م ، ص ١٦١،- ٢٠٠.

(٤) تتبع الدكتور محمد مصطفي زيادة في بحثه: بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك آداب القاهرة المجلد ٤ لسنة ١٩٣٦م وتلميذه الدكتور احمد مختار العبادي هذه المسألة قائلاً أن معظم المؤرخين السابقين والمحدثين أجمعوا على أن السلطان الصالح أيوب هو أول من رتب المماليك البحرية وسماهم البحرية لسكناهم معه في قلعة الروضة السلوك، ج١ ص٣٣٩ ، أي أن اسم البحرية يرجع لسكناهم معه في بحر النبل ولكن هذا القول عند الدكتور عبادي لا يستند إلى أساس علمي لأسباب الآتية :١_ أن المؤرخين المعاصرين للصالح أيوب أمثال ابن واصل وأبي شامة لم يشيروا إلى بحر النيل كأصل لكلمة بحرية ولكن هذه النسبة أوردها بعض المؤرخين المتأخرين أمثال المقريزي وأبي المحاسن. ٢ _ كما كان للفاطميين طائفة من الجند تعرف بالغز البحرية كذلك كان للسلطان العادل محمد الأيوبي فرقة من المماليك سماهم البحرية العادلية علاوة على ذلك كان سلطان اليمن عمر بن رسول (٦٤٧هـ /١٢٤٩م) والذي كان معاصراً للصالح أيوب "... عدد كبير من المماليك البحرية حتى بلغت عدتهم ألف فارس وكانوا يحسنون من الفروسية والرمي ما لا يحسنه مماليك مصر" الخزرجي، علي بن الحسين (ت. ٨١٣هـ/١٤١٠م)العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق محمد بن على الأكوع، ط٢، مركز الدراسات والبحوث اليمني (صنعاء)، ١٩٨٣م.، ج١ص٨٢ " . ليس هذا فحسب بل إن المؤرخين العرب الذين عاصروا الحروب الصليبية أطلقوا على بعض الفرق المسيحية اسم " الفرنج الغرب ==

وبالتحديد زمن الظاهر برقوق[5] ٧٨٤-٨٠١هـ/١٣٨٢-١٣٩٨م ذكر أنه من المفارقات بين المجتمع الأندلسي المغربي والمجتمع القاهري، وفق ما ذكره الرحالة الأندلسيون، كثرة وجود السماع والفرح والملاهي داخل القاهرة وخارجها، وقد حدثنا عن ذلك ابن الصباح فذكر صورًا من حياة المدح والسرور التي كان المصريون يحيونها فقال :"... والفرحة والخوارق في البلد سواء عندهم الأعياد أو سائر الأيام.. " [6] .

البحرية" أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل، (ت. ٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، الذيل على الروضتين، تحقيق السيد عزت العطار، ط٢، دار الجيل (بيروت)، ١٩٧٤م. ص١٠_١١ ؛ وهكذا يصل الدكتور العبادي في النهاية إلى القول بأن اسم البحرية لم يكن جديداً على مصر في عصر الصالح أيوب بل كان لفظا أطلق على المسلمين والمسحيين سواء وهو ما يؤكد خطأ الفكرة الشائعة بأن لفظ البحرية يرجع إلى بحر النيل الذي أحاط بثكنات فرقة البحرية الصالحية بجزيرة الروضة . ومن ثم يرى الدكتور زيادة أن الأفضل هو تسمية العصر باسم الدولة المملوكية الأولى والدولة المملوكية الثانية بدلًا من البحرية والبرجية. "أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر، دار النهضة العربية، (بيروت)، ١٩٦٩م. ص٩٧_٩٨

(٥) الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين برقوق بن آنص العثماني اليلبغاوي الجاركسي (نحو ٧٣٨ – ٨٠١هـ / ١٣٣٧ – ١٣٩٨م)، السلطان الخامس والعشرون من سلاطين المماليك في ديار مصر والشام، وأول السلاطين البرجية، تسلطن برقوق مرتين (٧٨٤ – ٧٩١ ثم ٧٩٢ – ٨٠١هـ(ابن صصري، محمد بن محمد (ت٧٩٩هـ/١٣٩٦م): الدرة المضية في الدولة الظاهرية ،تحقيق وليم .م، برنيز (كالفورنيا)١٩٦٣م. ص٤ – ١٦٦. وما بعدها. إيمان عمر شكر: برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة ، ط١، مكتبة مدبولي(القاهرة)٢٠٠٢م ص ١٣ – ٤٥.

(٦) ابن الصباح، الرحلة ، صـ١١٦.

لقد شغلت الأعياد والاحتفالات المصرية، وفي مضمونها عفاريت المحمل، حيزًا ملحوظًا وكبيرا في مصادر العصر المملوكي ولاسيما كتب الحوليات لكثرتها من جهة، واهتمام الحكام بالاحتفالات خاصة المتعلقة بموسم الحج من جهة أخرى، ولعل كثرة الاحتفالات المصرية المتعلقة بموسم الحج من وجود الرماحة وعفاريت المحمل... وغيره في تلك المرحلة ترجع إلى الأسباب الآتية:

١- وفرة الموروث والمستحدث: فللمصريين حضارات قديمة ورثت في بعض الأعياد، ثم جاء الإسلام فلم تمنع سماحته ولا رحابة صدور المصريين من أن يجمعوا بين الأعياد الموروثة والإسلامية في مصر[7]، ثم أتاها المماليك بأيام جديدة فأوسعت لها مصر مكانة بين أعيادها، وهكذا كان البعد الحضاري سببًا في وجود كثير من هذه الأعياد.

(٧) عن الأعياد والاحتفالات المصرية ينظر: القلقشندي: أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢٠ هـ/ ١٤١٧ م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، الأجزاء (١ – ١٤) ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، (١٩١٣ – ١٩١٩) ،ج٢، ص٤١٥-٤١٦-٤٢٠-٤٢٥؛ المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المقريزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١ م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، القاهرة، مكتبة الآداب ، (د . ت).، ج٢ ص٢٤-٣٣، أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، مكتبة الأسرة (القاهرة)٢٠٠٧م، ١٩-١١٨؛ سلام شافعي محمود : أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول ، مجموعة تاريخ المصريين ، ٧٥ ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥ م ، ص١٨٧؛ عبدالمنعم ماجد: نظم ورسوم الفاطميين في مصر، ط ٣ ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٨م ج٢ ص١٣١-١٣٦.

٢- موقف الحكام المماليك: فقد كان سلاطين المماليك يشجعون ويشاركون لعدة أسباب منها:

أ- التقرب إلى الشعب المصري: حيث لم يكن ليشفع للمماليك وقوفهم أمام التتار واستئصال شأفة الصليبيين من الساحل الشامي والمنطقة العربية عند من يحكمونهم، لأنهم عبارة عن جماعات أجنبية[8] من البلاد المختلفة شرق وشمال وغرب العالم الإسلامي، أضف إلى ذلك أنهم أرقاء عبيد لا توجب لهم

(٨) ولعله من المفيد هنا القول إن الاعتماد على المماليك الأتراك في مصر يعود إلى صلاح الدين الأيوبي بعدما جاء لمصر صحبه شيركوه وتقلده الوزارة ثم سلطنة الديار بعد ذلك حيث أخذ يعمل على محو آثار الدولة الفاطمية ومن ضمنها الجيش فطهر الجيش الفاطمي من العبيد السود والأرمن وغيرهم " المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج١ص٩٤؛ العبادي، دولة المماليك ص٨٣ " وأخذ في تكوين جيش ضم المماليك الأتراك الذين اشتراهم لنفسه وسماهم الصلاحية نسبة إلى اسمه أو الناصرية نسبة اللقب الذي أضفاه عليه العاضد حين ولاه الوزارة " أبو شامه، الروضتين ج٢ ص٢٢٩ " وكان طبيعي أن تزداد اعداد المماليك الأتراك مدة النزاع بين أبناء صلاح الدين وعمهم العادل وأن يستمر سلاطين الأيوبيين على جلب المماليك لتغذية جيوشهم ولذا يصفح تاريخ الأيوبيين بأسماء المماليك العزيزية نسبة إلى العزيز ابن صلاح الدين والعادلية نسبة إلى العادل محمد والأشرفية نسبة إلى الأشرف ابن العادل والكاملية نسبة إلى الكامل بن العادل والصالحية نسبة إلى الصالح أيوب وهكذا، وقد عنى الأخير أي الصالح أيوب منذ تبوئه عرش مصر بالإكثار من شراء المماليك الاتراك إلى درجة لم يبلغها غيره من أهل بيته حتى صار معظم جيشه منهم "أبو الفدا: المختصر ج٢ص ١٨٨؛المقريزي: السلوك ح١ص٣٣٩ ؛ محمد محمد أمين : السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب (رسالة ماجستير غير منشورة بآداب القاهرة ١٩٦٨م)، ص١٦٦.

طاعة[9]. لذلك زاد المماليك من الأسباب التي قد تقربهم من الشعب الذي يحكمونه وقد وجدوا ضالتهم في الاهتمام بالحرمين وحجاج بلاد الحرمين وسط احتفال مهيب [10].

ب- نجح المماليك في اجتذاب المصريين إلى اهتمامهم بالمحمل ورسومه ويفسر أحد الباحثين ذلك في ضوء ما أحدثه المماليك من عجائب ولطائف وألعاب بالرمح لا عهد لهم بها من قبل" [11]وذلك مناورة ذكية منهم للتقرب من المصريين عن طريق ظهورهم بمظهر حماة الدين ومقيمي شعائره [12] .

ويجب الإقرار بأن الذي قد ساعد على وجود ذلك هو طبيعة المصريين المرحة، حيث كان الاحتفال بدوران المحمل وما به من "عفاريت المحمل" مهرجانًا للمرح واللعب وتناول الأطعمة واقتراف الملذات[13] وبطبيعة الحال

(٩) ابن إياس: بدائع الزهور، تحقيق محمد مصطفي، دار الكتب ، القاهرة، ٢٠٠٩م ج١ ق١ صـ٨٩.

(١٠) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ج٤ صـ٥٧ – ٥٨.

(١١) نظير حسان سعداوي: صور ومظالم من عصر المماليك، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٦٦م، صـ٨٠.

(١٢) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، (القاهرة)، ١٩٩٢م. صـ١٧٠؛ وانظر: العصر المماليكي في مصر والشام، ط٣، الأنجلو مصرية، (القاهرة)، ١٩٩٤م.صـ٣٤٥.

(١٣) ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف (ت. ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج١٦، تحقيق جمال الشيال وفهيم شلتوت (القاهرة)، ١٩٧٢م صـ١٢٣ – ١٢٦.

كان لهذه الاحتفالات دلالات، ذكر بعضها أحد الباحثين المعاصرين[14] قائلا :"وإن نظرة على تلك الكثرة من الأعياد والاحتفالات المصرية في ذلك الحين، وما كان يصحبها من مظاهر البهجة والسرور والرفاهية، لتكشف لنا عن صورة تفيض بالبهجة والإشراق لمجتمع يعيش حياة مستقرة في ظل نظام سياسي متين، واقتصاد مزدهر، وأوضاع أمنية وطيدة الأركان" وهذه الصورة صحيحة في مجملها فقد كانت دولة سلاطين المماليك في طور الصعود والنمو والقوة، تتمتع بقدر كبير من الثراء والقوة مما جعلها حاكمة قادرة في الداخل، مرهوبة مهابة في الخارج [15] وتحقق للمصريين قدر كبير من السلام والرخاء النسبي وانعكس في النمو السكاني والرواج التجاري الداخلي. كما تمثل في اهتمام الناس بجوانب التسلية والترفيه في حياتهم. غير أن ذلك لا يعني أن الصورة كانت مشرقة على الدوام، حيث إن دولة المماليك حين بدأت رحلتها صوب الغروب والأفول، انعكس ذلك بوضوح على كافة مظاهر الحياة، ومنها "عفاريت المحمل" التي انحرفت عن السبب الذي كانت تقام الاحتفالات

---

(١٤) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، دار الشروق (القاهرة)، ١٩٩٤م صـ١١٣.

(١٥) دليل ذلك ما حدث في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م حين حج صاحب اليمن – وكان هو صاحب الأمر بالحجاز آنذاك– وقد أرسل قبل رحيله الصدقات والأعطيات من العلوفات إلى مكة. وقضى نسكه والوقوف بعرفه "... فوقف في ناحية الصخرات وطلعت أعلامه الشريفة وأعلام صاحب مصر، فقال له الأمير عز الدين محمد بن أحمد بن الإمام: هلا أطلقت أعلامك يا مولانا السلطان قبل أعلام المصريين؛ فقال له: أتراني أؤخر أعلام ملك كسر التتر بالأمس، وأقدم أعلامي لأجل حضوري..." الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج١، ص١٣٤؛ ابن فهد، نجم الدين عمر بن محمد بن محمد (ت. ٨٨٥هـ/١٤٨٠م): إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ج٣ ، تحقيق فهيم شلتوت، مركز البحث العلمي وإحياء التراث ١٩٨٤م ، ص٨٣

من أجله في العصر الأول[16] إلى الفساد والاعتداء على الناس في عصر الجراكسة[17] كما سيأتي بالتفصيل.

أصل عفاريت المحمل وتطورها.

يرى بعض الباحثين[18] أن اسم عفاريت المحمل كان يستعمله الشعب المصري طوال العصور الوسطى، حيث كان يتقدم ركب المحمل جماعة الممثلين الهزليين الذين عرفوا باسم أصحاب المساخر وهم في زيهم الذين كانوا يظهرون به في الحلقات التمثيلية المنتشرة في المدن المصرية، كما يرى هذا الفريق أن "كلمة مسخرة الحالية" هي مما ورثناه عن الألفاظ التي كانت مستعملة منذ العصر الأيوبي بمعنى "الممثل الكوميدي" وأن "الممثل الكوميدي" في هذه العصور كان يغير من شكله، فكان يضع على وجهه الأصباغ والألوان ولحية كثة تغطي أكثر وجهه. وكان هؤلاء يعرضون فنهم في حلقات في الميادين العامة دون أن يتخذوا مسرحًا أو دارًا خاصة للتمثيل، وكان شأنهم في ذلك شأن فرق التمثيل في أوروبا قبل عصر النهضة الأوروبية الحديثة. كان هؤلاء الممثلون يخرجون في احتفالات المحمل كما كانوا يظهرون وهم

(١٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤ تحقيق فهيم شلتوت وجمال محرز (القاهرة)، ١٩٧١م صـ٣٢٦.

(١٧) ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد، (ت. ٨٥٢هـ/١٤٤٨م): إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (القاهرة)، ٢٠٠٩م. ، ج٢ صـ٤٠٢، سعداوي: صور ومظالم صـ٨٣.

(١٨) محمد قنديل البقلي: صور من أدبنا الشعبي أو الفولكلور المصري، الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٦٢م، صـ١٤٨ – ١٥٠.

يؤدون أدوارهم التمثيلية أمام الناس، وكان يسير معهم البهلوانات[19] ومن هؤلاء من كان يسير على أرجل خشبية قد ترتفع إلى ثلاثة أمتار تقريبًا، ويسدل عليهم معطف طويل يغطي هذه الأرجل الخشبية، ويلطخ وجهه بالمساحيق، فكان منظره يثير ضحك الناس حتى أطلقوا على أمثال هؤلاء اسم "عفاريت المحمل"[20].

غير أن هذا الكلام إن كان طيبًا في مجمله إلا أنه يحتاج إلى التمحيص في بعض الأمور لاسيما القول[21] بأن اسم عفاريت المحمل كان يعرفه الشعب المصري طوال العصور الوسطى، كيف هذا ولم يظهر هذا المصطلح في أية مصدر قبل عصر سلاطين المماليك؟! وحتى إن كانوا يقصدون أرباب المساخر فهم غير "عفاريت المحمل" تمامًا، إذ أن عفاريت المحمل ارتبط ظهورهم ووجودهم في فترة دوران المحمل لا غير[22]، أما

---

(١٩) ذكر : لطفي أحمد نصار: وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٩م ص ٢٨٩ :" وهناك إشارة إلى إحدى التصاوير من هذا العصر –المملوكي– من مقامات الحريري المحفوظة بالمكتبة الأهلية في فينا، منسوبة إلى مصر حوالي سنة ٧٣٤هـ /١٣٣٤م عبارة عن صورة لأمير في مجلس شراب وطرب وترفيه، حيث يوجد أسفل منه رسم لشخص يؤدي بعض الألعاب البهلوانية مما يعطي صورة واضحة عن بعض الألعاب التي كانت سائدة في ذلك العصر"

(٢٠) البقلي: صور من أدبنا الشعبي، ص١٤٨–١٥٠؛ وانظر:

Jomier، J. Le Mahmal et la CaravaneEgyptienne des Pelerins de la mecque (Le Caire)، 1953، p. 62

(٢١) أيمن عثمان : موسوعة تراث مصر، دار دون، القاهرة ، ٢٠١٧م ج٢ ص ٦–٨.

(٢٢) ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ج١ تحقيق فهيم شلتوت، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، (القاهرة) ١٩٩٠م، ج١ ص ٣٧٨–٣٧: ينظر: شوقي ضيف: الفكاهة في مصر ، القاهرة، ١٩٨٥م ، ص ٦٤. .

أربـاب المسـاخر فكـان عـملـهـم مـوجـود طـوال الـعـام وذكـر الـمـقـريـزي [23] أن مـنـطـقـة بـاب الـلـوق[24]

(٢٣) المقريزي: هو تلميذ مخلص لفكر ابن خلدون، ولد في حارة برجوان بالقاهرة عام ٧٧٦هـ/١٣٧٤م درس على كبار شيوخ عصره وعلمائه في الفقه والحديث والتاريخ، تأثير أكثر ما تأثر بأستاذه عبد الرحمن بن خلدون أثناء إقامته بالقاهرة وتوليه قضاء المالكية بها. تولى عدة وظائف منها موقعاً بديوان الإنشاء ثم قاضياً عند القاضي الشافعي، فخطيباً بجامع عمرو، وبمدرسة السلطان حسن، وإماماً بجامع الحاكم ومُدرساً بالمدرسة المؤيدية، ثم محتسباً في عهد السلطان برقوق، وقد تولى وظيفة الحسبة أكثر من مرة، ثم تفرغ للتاريخ دون غيره سنة ٨٣٤هـ/١٤٣١م، فلزم داره بحارة برجوان إلى آخر حياته يكتب ويؤلف في علوم مختلفة، وبوجه خاص في التاريخ، حتى نبغ فيه بزغ بين أقرانه ومعاصريه بين مؤرخي القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي وتوفي سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م. بعد أن ترك إنتاجا ضخما أهله ليكون كبير مؤرخي مصر وزعيمهم دون منازع. وأهمية مؤلفاته أنها اهتمت بالتأريخ للعامة واهتمامه بأخبار احتفالات العوام ومأكولاتهم وأفراحهم واطراحهم موجودة بكثرة. للمزيد عن المقريزي انظر: السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن بكر (ت. ٩٠٢هـ/١٤٩٦م): التبر المسبوك في ذيل السلوك، تحقيق لبيبة إبراهيم ونجوى مصطفي، دار الكتب والوثائق، (القاهرة)، ٢٠٠٧م ، ج١ ص٧٠-٧٨؛ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة الحياة (بيروت) د.ت، ج٢ص٢١

(٢٤) ذكر المقريزي أن باب اللوق، هو المنطقة المجاورة لجامع الطباخ المطل على بركة الشقاف، وما يسامته إلى الخليج الذي يعرف اليوم بخليج فم الخور، وينتهي اللوق من الجانب الغربي إلى منشأة المهراني، ومن الجانب الشرقي إلى الدكة بجوار المقس، وكان القاضي الفاضل قد اشترى قطعة كبيرة من أراضي اللوق هذه من بيت المال وغيره بجمل كبيرة من المال، ووقفها على العين الزرقاء بالمدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام. الخطط ، ج٣ ص٢١٠.

وبولاق[25] وبركة الرطلي[26] كانت أهم مراكز التمثيل الساخر في القاهرة.

---

(٢٥) ظهرت بولاق لتحتل مكانة اقتصادية واجتماعية حين انحسر الماء بعد سنة سبعين وخمسمائة عن جزيرة عرفت بجزيرة الفيل، وتقلص ماء النيل عن سور القاهرة الذي ينتهي إلى المقس، وصارت هناك رمال وجزائر، ما من سنة إلا وهي تكثر، حتى بقي ماء النيل لا يمر بها إلا أيام الزيادة فقط. وفي طول السنة ينبت هناك البوص والحلفاء، وتنزل المماليك السلطانية لرمي النشاب في تلك التلال الرمل. فلما كان سنة ثلاث عشرة وسبعمائة رغب الناس في العمارة بديار مصر، لشغف السلطان الملك الناصر بها ومواظبته عليها، فكأنما نودي في القاهرة ومصر أن لا يتأخر أحد من الناس عن إنشاء عمارة، وجد الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة في البناء، وصارت بولاق حينئذ تجاه بولاق التكرور، يزرع فيها القصب والقلقاس على ساقية تنقل الماء من النيل، حيث جامع الخطيري الآن، فعمر هناك رجل من التجار منظرة، وأحاط جدارا على قطعة أرض غرس فيها عدة أشجار وتردد إليها للنزهة. المقريزي: الخطط، ج٣ ص ٢٣٤. وتشير د ليلى عبدالجواد إسماعيل , بولاق في عصر دولة المماليك الجراكسة, دار الثقافة العربية, القاهرة, ٢٠٠٧م, ص١٢٣-١٢٤. إلى أنه في عصر المؤيد شيخ كانت تقام ببولاق احتفالات دوران المحمل ومن ثم عفاريت المحمل لارتباطهما ببعض- ومثل هذه الاحتفالات لم يكن لبولاق عهد بها قبل المؤيد شيخ الذي اتخذ من بولاق مقام ومقرا.

(٢٦) بركة الرطلي: هذه البركة من جملة أرض الطبالة، عرفت ببركة الطوابين، من أجل أنه كان يعمل فيها الطوب، فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصري، التمس الأمير بكتمر الحاجب من المهندسين أن يجعلوا حفر الخليج على الجرف إلى أن يمر بجانب بركة الطوابين هذه، ويصب من بحري أرض الطبالة في الخليج الكبير، فوافقوه على ذلك، ومر الخليج من ظاهر هذه البركة ، فلما جرى الماء في الخليج الناصري ودخل منه إلى هذه البركة، عمل الجسر بين البركة والخليج، فحكره الناس وبنوا فوقه الدور، ثم تتابعوا في البناء حول البركة حتى لم يبق بدائرها خلو، وصارت المراكب تعبر إليها من الخليج الناصري فتدورها تحت البيوت وهي مشحونة بالناس، ==

كما أن الطولونيين والأخشيديين والفاطميين والأيوبيين أسهموا بشكل طيب في خروج قافلة الحاج المصري وأعانتها وإرسال المقررات العينية والنقدية للحرمين، غير أن أحدًا منهم لم يقم بدوران المحمل وكان قصب السبق في ذلك لدولة المماليك وللسلطان الظاهر بيبرس بالخصوص[27].

يقول ابن إياس[28] في أحداث ٦٧٥هـ/١٢٧٦م عن الظاهر بيبرس:"... وفي هذه السنة طيف بالمحمل الشريف، وكسوة الكعبة، بالقاهرة، في رجب، وكان يومًا مشهورًا، وهو أول من فعل ذلك من الملوك بمصر..." وطالما كان

فتمر هنالك للناس أحوال من اللهو يقصر عنها الوصف، وتظاهر الناس في المراكب بأنواع المنكرات من شرب المسكرات وتبرج النساء الفاجرات واختلاطهن بالرجال من غير إنكار، فإذا نضب ماء النيل زرعت هذه البركة بالقرط وغيره، فيجتمع فيها من الناس في يومي الأحد والجمعة عالم لا يحصى لهم عدد. المقريزي: الخطط، ج٣ ص ٢٨٧.

(٢٧) المقريزي: الذهب المسبوك صـ١١؛ السلوك، ج١، صـ٥٠٢،.

(٢٨) بدائع الزهور، ج١ ق١ صـ٣٣٦. وابن إياس هو من مؤرخي السنوات الأخيرة لتاريخ دولة المماليك قاهري المولد والنشأة والوفاة، يتشابه مع أبي المحاسن(ابن تغري بردي) وعبد الباسط خليل في كونه سليل أسرة مملوكية، ولكن ابن إياس لم يكن ابناً لواحد من أمراء المماليك، وإنما كان ابناً لواحد من "أولاد الناس" وهو ما يعني أنه كان مصرياً وأقرب إلى المجتمع المصري من أبناء الجيل الأول من "أولاد الناس" وقد انعكس ذلك في صفحات كتبه كلها. تعلم علوم عصره في جو التراجع الفكري والعلمي الذي شهدته دولة المماليك في أيامها الأخيرة. وقد متّ إلى بعض رجال الدولة المملوكية في عهد قايتباي والغوري بصلة المصاهرة والقرابة للمزيد عن ابن إياس انظر: قاسم عبده قاسم: قراءة التاريخ تطور الفكر والمنهج، ط١، دار عين (القاهرة)، ٢٠٠٩م.، ص١٥٧-١٦٠ ؛ محمد مصطفي زيادة: المؤرخون في مصر في القرن ١٥م، ط٢، (القاهرة)، ١٩٥٤م ، ص٤٧-٤٩

بداية دوران المحمل ترجع للمماليك فبديهي أن تكون الاحتفالات المصاحبة لدوران المحمل وعلى رأسها "عفاريت المحمل" تعود للعصر المملوكي، ومع الاعتراف بقاعدة لكل شيء سابقه ولاحقه، فالسابقة هنا اهتمام الدول السابقة على العصر المملوكي بخروج الحجاج وقافلة الحج، ثم جاء العصر المملوكي ليسهم المماليك بنصيبهم في هذا التطور في الاهتمام بالحجاز ضمن سياستهم الرامية إلى إحكام السيطرة على بلاد الحرمين[29]. وكان من طقوس هذا

(٢٩) من الثابت أن السلاطين المماليك أولوا أمراء الحجاز عامة والحرمين خاصة بالعناية المبكرة، حيث جاءت المكاتبات التي تمثل الجانب السياسي الصريح لتهدف إلى فرض السيادة المملوكية على الحجاز، ومن ثم احتوت هذه المناشير السلطانية قرارات سلطانية تتضمن تعيين الأمراء والخطباء في إطار التوسع في النفوذ، أضف لذلك أنها تضمنت الأمر بالالتزام بالدعاء للسلاطين. وعلى ذلك كان الهدف من استخدام المكاتبات هو السعي لتوطيد السيادة المملوكية على الحجاز، ومن ذلك: فرض الدعاء لهم من فوق منابر الحرمين الشريفين، ووضع الكسوة على الكعبة، ناهيك عن تعيين الأمراء والخطباء، كل ذلك لإعلان خضوع الحجاز لسيطرتهم، وإبعاد القوى المنافسة في ذلك، وبذلك أضحت المكاتبات تلعب دورا مهما في هذا المجال السياسي الذي يحمل رسالة إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي خاصة أثناء موسم الحج. إذ بدأ الدعاء للسلاطين المماليك مبكرا، بالخطبة للمعز أيبك (٦٤٨-٦٥٥هـ/١٢٥٠-١٢٥٧م)على منابر الحرمين الشريفينفي فترة لم تكن الخطبة خالصة لصاحب مصر، وقد استفاد أمراء الحجاز من الخطبة بتوجيهها لمن يمنحهم الصلات، حيث مصالحهم التي يستفيدون منها بعلاقاتهم مع القوى السياسية الأخرى. ثم استطاع المماليك إحكام السيطرة التامة على الحجاز لصالحهم وصار المحمل ودورانه واحتفالاته إحدى صور هذه السيطرة . ريتشارد مورتيل : الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ط١ ،الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤٠٥هـ.، ص ص٧٢-١٠٢. . وانظر عن محاولات المغول للسيطرة على الحرمين وتصدي المماليك لهم عند :

HoworthAhistory of Mangols،(london)1881 Vol. 3، P. 599

الاهتمام المملوكي ضمن سياسة تعظيم السلطنة ولفت الانتباه لكل ما يتعلق بالحجاز هو "عفاريت المحمل".

غير أن المؤكد أنه بمضي الزمان من دخول مصر في الإسلام أي ستة قرون تقريبًا قبل أن تقابلنا أول إشارة إلى دوران المحمل زمن الظاهر بيبرس. ونظرًا لتفرق المعلومات وعموميتها في هذه القرون الستة، فإنه من المخاطرة الإقرار بكل ما جاء عند البقلي وأيمن عثمان[30]، ومن نقل عنهما – من تطور الرسوم الاحتفالية في هذه الفترة مع تغير الأسماء فقط، خاصة وأن النظم والرسوم من أكثر الموضوعات تعرضًا للتبديل والتغيير في الدولة الواحدة حتى تصل إلى مرحلة الثبات والاستقرار مع قمة ازدهار الدولة. وطالما أن العام على عمومه حتى يصل إلى قاعدة تخصصه، فيمكن القول إن عفاريت المحمل وليدة العصر المملوكي – رغم اهتمام السابقين على المماليك بالحجاز وقافلة الحج.

وقد أمدنا ابن تغري بردي[31] برواية مهمة في هذا الصدد تؤكد وتدعم ما ذهبنا إليه، ففي أثناء عرضه لمراحل تطور مراسم دوران المحمل بالقاهرة

---

(30)أيمن عثمان: موسوعة تراث مصر ، ج٢ص٧؛ البقلي: صور من أدبنا الشعبي ص١٤٨-١٥٠.

(٣١) جمع أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي بين ثقافة أبناء الطبقة العسكرية من أرباب السيوف لكون أباه أحد العسكريين، وثقافة أبناء فئة أهل العمامة من أرباب الأقلام، وقد مكنته الثروة التي ورثها عن أبيه إلى الانصراف إلى العلم ومساعدته في تكوين مكتبة ضخمة ،كذلك فإن مكانة أبيه ثم زواج أخته "خوند فاطمة" من السلطان فرج بن برقوق، وكونها الزوجة الرئيسية للسلطان، جعلاه قريباً من دوائر صنع الأحداث في الشطر الثاني من عصر سلاطين المماليك حيث عاصر عن قرب كلا من السلطان ==

وزيادة هذه الرسوم من سلطان إلى آخر قال ابن تغري بردي[32]:"... ازداد الاحتفال بحسب اجتهاد المعلمين، كما وقع ذلك في غيره من الفنون والملاعيب والعلوم، فإن مبدأ كل أمر ليس كنهايته وإنما شرع كل معلم في اقتراح نوع من أنواع السَوَقَ ، إلى أن انتهى إلى ما نحن عليه الآن ، ولا سبيل إلى غير ذلك ، وعلى هذه الصيغة أيضًا اللعب بالرمح فإن مماليك قلاوون هم أيضًا من أحدثوه وإن كانت الأوائل تلعبه...". وبالقياس فإن كان الناس قبل العصر المملوكي يغيرون من هيئتهم ويضحكون العامة في مناسبات ما، فإن الفضل للمماليك في أن يلعب العفاريت ألعابهم أمام المحمل، فنسبوا اليه، وصاروا يعرفون بـ "عفاريت المحمل" كما صار خبر الدوران مقترنًا بالعفاريت[33].

لقد كان المماليك يهتمون بركب الحجيج بمواكب احتفالية أكثر تعقيدًا بين كل معاصريهم وسابقيهم، ومن خلفوهم أيضًا، وتكشف لنا روايات المصادر المعاصرة عن اختلافات مهمة في الرسوم الاحتفالية لخروج الحجيج على امتداد العصر المملوكي، بالرغم من أن العديد من خطوطها العامة ظلت ثابتة دون تغيير، إذ أن ذلك الأمر عد من رسوم الدولة المملوكية التي تميزت

فرج، وبرسباي، وجقمق، وخشقدم (للمزيد انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠ ص٣٠٥-٣٠٨)، أي أنه داخل دائرة صنع الأحداث السياسية، التي كانت لها تأثيراتها الواضحة " بحيث كان أقرب إلى شهود العيان منه إلى المؤرخين في أحيان كثيرة"

(٣٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، تحقيق القسم الأدبي بدار الكتب، ج٧ ص ٣١١.

(٣٣) ابن تغري بردي: حوادث الدهور ص ٣٩٧؛ النجوم الزاهرة ، ج١٦ ص ١٢٣.

بها من سائر الدولة المعاصرة؛ يقول ابن ظهيرة [34] تحت عنوان " فضل في ذكر ما اختصت به مصر والقاهرة من محاسن وفضائل "... دوران المحمل الشريف النبوي المتوجه إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام من رجب من كل عام بعد النداء بين يدي مصر والقاهرة ثلاثة أيام، فيدور في اليوم الرابع ومعه كسوة الكعبة المشرفة وكسوة مقام سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وستر ضريح نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام بالحجرة الشريفة...".

لم تكن نظرة ابن ظهيرة في تميزه لأهل بمصر بدوران المحمل نظرة أحادية عابرة، حيث نجد القلقشندي[35] أيضًا وهو معاصر لابن ظهيرة ذكر

---

(٣٤) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفي السقا، ومحمد كامل المهندس، ط٢، دار الكتب والوثائق، ٢٠٠٩م صـ١٨٨، ١٩٩ – ٢٠٠.

(٣٥) القلقشـــندي، هو أبو العباس شـــهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد، ولد في قرية قلقشندة بمحافظة القليوبية عام ٧٦٥هـ، درس في القاهرة والإسكندرية وبرع في الأدب والفقه الشـــافعي، وذاع صـــيته في البلاغة والإنشـــاء، مما لفت إليه أنظار البلاط المملوكي فالتحق بديوان الإنشاء في عهد الظاهر برقوق سنة ٧٩١هـــ، واستمر فيه حتى ٨٠١هـــ ومع مطلع القرن التاسع الهجري شرع القلقشندي في وضع موسوعته الضخمة " صبح الأعشى في صناعة الإنشاء " فبدأ تأليفه عام ٨٠٥هـ وفرغ منه في شوال عام ٨١٤هـــ، وقضى أيامه الأخيرة في عزلة عن المناصب العامة وتوفي سنة ٨٢١هـــ ؛ترجمته في: ابن حجر: أنباء الغمر، ج٣ ص١٧٨-١٧٩ ؛ الســخاوي: الضـــوء اللامع، ج٢ ص٢٥؛ ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن احمد بن محمد العكري الدمشقي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب ،تحقيق محمود الأرنـاؤوط،ط١،دار ابن كثير (بيروت)١٩٨٨م. ، ج٩ س٢١٨-٢١٩.وعن أهمية الموسـوعة بالتفصـيل انظر : عبدالقادر أحمد طليمات ، وثائق القلقشـندي في ==

في اختصاص سلطان المماليك بأماكن داخله في نطاق مملكته يمتاز بها على ملوك الأرض من المسلمين وغيرهم عد من هذه الأشياء ".....الكعبة المعظمة، ... واختصاصه بكسوتها ودوران المحمل في كل سنة...."[36] .

لذلك كان بديهيًا أن يطور المماليك من وقت لآخر ما يتصل بدوران المحمل حتى يكون لكل سلطان خبر يخلد ذكراه ؛ لذلك لم يكن غريبًا أن نقرأ عند ابن إياس خبرًا يثني فيه على السلطان الغوري سنة ٩٠٩هـ/١٥٠٣م حين أمر بدوران المحمل ولعب الرماحة والعفاريت أمامهم على العادة القديمة لحبه ذكر ذلك من محاسنه. ففي جمادي الأولى سنة ٩٠٩هـ/١٥٠٣م قوي عزم السلطان الغوري على أن يدور المحمل في رجب وتلعب الرماحة وتُعمل عفاريت المحمل، وكان هذا الأمر قد بطل من سنة اثنين وسبعين وثمانمائة من دولة الظاهر خشقدم[37] ونسي فن الرماحة وعفاريت المحمل من يومئذ "... فأراد السلطان أن يجدد هذا الأمر حتى يصير له التذكار بين الملوك بتجديد هذا الفن..."

والأهم من ذلك كله أن مصادر العصر المملوكي قدمت تعريف لعفاريت المحمل فقال ابن تغري بردي[38] :"... عفاريت المحمل... وهم جماعة من الأجناد وغيرهم...". هنا أبو المحاسن وهو من مؤرخي العصر المملوكي وأحد

صبح الأعشى (ضمن أبي العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى ،تقديم احمد عزي عبدالكريم ،دار الكتب، القاهرة ، ص ١١٩-١٤٠.

(٣٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤ ص٥٧. وانظر:

Fabri،F . Le voyage en Egypte de feliexfabri،(ed) masson،j.s .paris، 1957،vol 2 p.640

(٣٧) ابن إياس: بدائع الزهور ج٤ ص ٥٩- ٦٠.

(٣٨) حوادث الدهور ، ج١ ص ٣٧٨.

أبناء المماليك من تلك الطبقة المثقفة التي عرفت باسم "أولاد الناس"[39] من العارفين بأصل الأشياء وكثيرا ما تولى معلمية المحمل[40] وعلى علم بتفاصيل مراسم دوران المحمل.. ذكر أن " عفاريت المحمل" هم من الأجناد وغيرهم، وجعل الأجناد في مقدمة روايته، وهذا معناه أن السلاطين المماليك هم من قرروا طقس " العفاريت" إذ أنه من غير المعقول أن يقوم الأجناد بهذا العمل دون علم السلطان الذي يحضر الاحتفالات ويشاهدها بنفسه ويخلع على القائمين عليها! . وبذلك يمكن القول إن عمل العفاريت أمام المحمل مثل عمل الرماحة من اختراع المماليك ولم يسبق لأحد أن أطلق هذا الاسم قبل عصر سلاطين المماليك، وإن كانوا يمارسون نفس الطقوس أو كثير منها، غير أن المماليك سمحوا للعامة بالمشاركة فيها بجانب المماليك ضمن سياسة التقرب من الرعية من ناحية، وللقيام بالأعمال البهلوانية التي قد لا يجيد المماليك فعلها أو يكون عمل الجندي لها فيه إقلال من شخصيته الحربية من جهة ثانية، وظل أجناد المماليك المجلوبون عبيدًا في طفولتهم وتعلموا أصول

---

(٣٩) أولاد الناس: هم أبناء المماليك الذين ولدوا في مصر ولم يمسهم الرق ولم يُجلبوا إليها مع النخاسين، لذا عُرِفوا في مصطلح ذلك العصر باسم «أولاد الناس» تميزا لهم عن المماليك وعن المصريين، وكانت مكانتهم الاجتماعية أدنى من الأمراء المماليك، فهم فئة خرجت من قلب طبقة المماليك لتصبح فئة من فئات الشعب المصري في العصر المملوكي. ينظر عن دورهم في المجتمع المصري بالتفصيل: انظر :نهلة أنيس: أولاد الناس بمجتمع عصر سلاطين المماليك،دار الكتاب الجامعي, القاهرة, ٢٠٠٣م ص١٠ وما بعدها ؛وانظر أيضًا:السيد صلاح الدبيكي: أولاد الناس في عصر سلاطين المماليك، دار عين، القاهرة، ٢٠١٦م ، ص ١٩– ٢٣.

(٤٠) معلمية المحمل أي قيادته اثناء الدوران وكانت لها مدرسة لتعليم القائمين على احتفالات المحمل أصول السوق ورسومه وطرقه . ابن تغري بردي: حوادث الدهور ج١ ص ٣٦٨.

الدين الإسلامي في الثكنات العسكرية وتعلموا تعظيمه والدفاع عنه[41] ينفذون ما كلفوا به من تعظيم المحمل والاحتفال به فيما عرف بـ "العفاريت" باعتبار أنهم بذلك يبجلون متعلقات البلد الحرام وعلى رأسها كسوة الكعبة التي تعرض حينئذ. غير أنه عندما انقلب الحال وتم الاستغناء عن جلب المماليك صغار، وتفضيل جلبهم في سن البلوغ في العصر المملوكي الثاني انقلب الحال لأن هؤلاء الأجلاب المجلوبون كبارا لم يتعلموا أصول الدين في الثكنات ولم يتشبعوا بحب الدين وتعظيمه والمحافظة عليه ومن ثم لم يهتموا بالمحافظة على يوم المحمل وفق القواعد المتبعة وصار هذا اليوم يوم انتهازية من الأجناد لذلك

(٤١) كانت المرحلة الأولى من مراحل تدريب المملوك هي مرحلة تعليم المملوك الكتابة، والتي جاءت عند المقريزي على هذا النحو : فإذا قدم بالمملوك تاجره ، عرضه على السلطان فيشتريه ويجعله في طبقة جنسه ، ويسلمه إلى المختص برسم الكتابة، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم . ولكل طائفة فقيه يأتيها كل يوم ، ويأخذ في تعليمها القرآن، ومعرفة الخط والتمرين بآداب الشريعة الإسلامية، وملازمة الصلوات والأذكار. وصار الرسم إذ ذاك ألا تجلب التجار إلا المماليك الصغار ..." فإذا أتم المملوك ذلك تبدأ المرحلة الثانية وهي مرحلة التدريب العسكري على النحو التالي :"... فإذا صار الملوك إلى سن البلوغ أخذ في تعليمه فنون الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إلية وإذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جندي أو أمير أن يحدثهم أو يدنوا منهم عند ذلك ينقل إلى الخدمة وينتقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء..." المقريزي ، الخطط ج٢ص٢١٢-٢١٤. ومن هنا تشبعت أخلاق مماليك الدولة الأولى بتعاليم الإسلام. وجدير بالذكر أن الفارس الصليبي جون دي جوانفيل الذي احتك بالمماليك في الحملة الصليبية السابعة وتم أسره على يديهم حاول البحث عن سبب قوة المماليك في الحروب وأشار لكثير مما ذكره المقريزي فيما بعد ينظر : جوانفيل: سيرة القديس لويس : حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة محمد مصطفي زيادة، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٨م ، ص١٣٧-١٤١.

كانت تخرج التحذيرات السلطانية تقرأ على الملأ تقول :"... ونهى السلطان المماليك الأجلاب عن أن يعمل أحد منهم عفاريت المحمل....[42].

أماكن احتفالات عفاريت المحمل وزمانها

ارتبطت أماكن احتفالات عفاريت المحمل بنفس الطريق الذي كان يدور فيه المحمل، كما أن زمن احتفالات عفاريت المحمل هو نفسه زمن دوران المحمل طالما كان بالقاهرة ولم يأخذ طريقه للحجاز؛ لأن ألعاب عفاريت المحمل كانت تتم أمامه وخلال دورته ومنها اكتسبت اسمها "عفاريت المحمل" فإذا هلّ هلال رجب تجلى الجانب الاحتفالي بالقاهرة بصورة غير مسبوقة، ويقصد بذلك دوران محمل الحاج بالقاهرة، والذي بدأه بيبرس[43] تأكيداً لدوره في حماية الحرمين بين الرعية حيث أمر بالطواف بكسوة الكعبة في مصر والقاهرة قبل خروجها إلى الحرمين[44] . ويعد دوران المحمل، والاحتفال به، من أكثر الأخبار ورودا في المصادر، ومن خلال تتبع المصادر المعاصرة ظهرت لنا العديد من النتائج؛ أحدها رغبة المماليك في تدعيم الشرعية التي

(٤٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٦ ص ١٢٣

(٤٣) عبد الله عنقاوي: المحمل نشأته وآراء المؤرخين فيه، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، مج٢، سنة٢، ١٣٩٢هـ، ص ص٣٢٣-٣٣٨.

(٤٤) ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم (ت. ٦٨٤هـ/١٢٨٥م): تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط، الهيئة العامة لقصور الثقافة، س الذخائر (القاهرة)، ٢٠٠٩م ، ص١٨٦؛اليونيني، قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد بن أحمد بن قطب الدين،(ت.٧٢٦هـ/١٣٢٦م): ذيل مرآة الزمان، حيدر آباد، ١٩٥٤م ج١، ص ٥٣٥.

حصلوا عليها بإحياء الخلافة العباسية في مصر[45] . وثانيها الانفراد بزعامة العالم الإسلامي، بعد الفراغ الذي أحدثه سقوط الدولة العباسية في بغداد.

(٤٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٦، ص٣١٢، ص ٣٥٠-٣٥٢؛ محمود شاكر : التاريخ الإسلامي (العهد المملوكي)، ط٥(دمشق: المكتب الإسلامي،١٤٢١هـ)، ج٧، ص٥.فبعد أن أعاد المماليك الخلافة العباسية بالقاهرة أصدر الخليفة العباسي مرسومًا في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، قرئ على مسمع من الناس والحضور، وقد تناقلته الركبان، وحمل المرسوم عدة أوامر للنظر في شؤون مكة باسم مصر وإظهار شعار تفوقها وسيادتها هناك، وقد ورد ذلك صراحة بما نصه: "... وحضورهما للخطبة لنا...والسبيل والمحمل..." وكذلك" أن يكاتبا زعماء الحجاز واليمن وسائر البلاد بالطاعة لله ورسوله ولأمير المؤمنين...بإجابة بيعته وطاعة دعوته..." الفاسي، محمد بن أحمد (ت:٨٣٢هـ/١٤٢٨م)،العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ.ج١، ص١١٥وهو ما من شأنه أن يزيد من شرعية فرص حكمهم. مما أكسب السلاطين المماليك المكانة السياسية عند المسلمين قاطبة، والتي استفادوا منها كورقة خولتهم التوجه إلى ضم الأراضي الحجازية وإدخال الحرمين الشريفين تحت سيادتهم الإدارية لضمان تولي الزعامة الإسلامية. أي أن الخليفة أعطى تفويض للسلطان المملوكي الظاهر بيبرس بشؤون الحجاز. كما حمل المرسوم قرار بتقديم المحمل المصري على سائر المحامل الأخرى، ولا شك أن المحمل: هو محمل الركب المصري الذي لا يخلو من وسائل الإعلام له، سواء في مظاهر استقباله، أو ما يحمله من النقوش، وقبل ذلك الكسوة التي تأتي برفقته. ومن المعلوم أيضا أن الخليفة، ليس بيده شيء من الأمر، ما هو إلا صورة لما يأمر به السلطان، ويقره. وطالما الأمر كذلك فاجتهد المماليك في تطوير المفهوم الخليفي بالاهتمام بالمحمل المصري عبر مراسم صارت من قواعد الدولة ورسومها. وعن مكانة الخلفاء العباسيين في مصر عند أمراء الحجاز انظر : المقريزي: الذهب المسبوك، ص ٩١-٩٢؛ السلوك، ج٢، ص٣٥١.

وأخيرا ترسيخ توجهاتهم الدينية، للظفر برمزه المتمثل بالحرمين الشريفين، ولا تكون إلا بربطهما سياسيا بالقاهرة.

من أجل ذلك؛ كانت تخرج التعليمات السلطانية بأمر المناداة؛ إذ ينادي منادٍ في الناس بتزيين حوانيتهم ودورهم، فيظل المنادون في رجب يجوبون شوارع القاهرة والفسطاط، وينادون في الأسواق بموعد دوران المحمل –ومن ثم المناداة بموعد العفاريت وألعابهم–، وذلك قبل الموعد بثلاثة أيام يتكرر النداء خلالها ودعوة الناس إلى المشاركة في الاحتفال [46]. وما أن ينادي المنادي حتى يأتي الناس من كل مكان للفرجة على دوران المحمل ومشاهدة كسوة الكعبة، وعلى طول الطريق تحتشد الجموع لمشاهدة موكب المحمل الذي يشق طريقه من باب النصر حتى ميدان الرميلة تحت القلعة[47]. والمناداة ما هي إلا إعلام عن احتفال عفاريت المحمل ضمن المفهوم الشامل للدوران، وإذا كانت المناداة عن أمر يتعلق بالحجاز وخاصة كسوة الكعبة الشريفة. فالجانب السياسي عن سيادة المماليك على الحرمين يكون ظهر أكثر. وهذا ما يدل على أن هدف المماليك من المحمل ورسومه الاحتفالية كان هدفًا سياسيًا –وإن حمل بعض الصور الدينية– وهو الإعلام المستمر عن خضوع الحجاز للسيادة المملوكية [48] .

---

(٤٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٥٩؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري ، ص ٢٠٠.

(٤٧) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٥٣٤؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص ١٩٨.

(٤٨) فاستغل السلاطين المماليك مسألة إحياء الخلافة بالتوجه إلى فرض السيادة المملوكية على الحجاز. فكانت النواة الأولى لذلك في سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م، إذ قلّد ==

المهم أنه في اليوم المحدد لدوران المحمل بالقاهرة والذي يكون غالبا بعد النصف الأول من رجب، يركب القضاة الأربعة في موكب المحمل ووكيل بيت المال والمحتسب، ويركب معهم أعلام الفقهاء وأرباب الرؤساء وأرباب الدولة، ويقصدون جميعا باب القلعة دار الملك الناصر فيخرج إليهم المحمل على الجمل وأمامه الأمير المعين للسفر الى الحجاز ويتجمع لذلك النساء والرجال ثم يطوفون بالمحمل وجميع من يرافقه بالقاهرة ويسمى ذلك الدورة الرجبية[49] . ويعلق ابن بطوطة على ذلك فيقول:".... فعند ذلك تهيج العزمات وتنبعث الأشواق وتتحرك البواعث، ويُلقي الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده؛ فيأخذون في التأهب والاستعداد...." [50].

ونص ابن بطوطة له أهميته في هذا الصدد، إذ يبرهن على أنه عند خروج الركب للاحتفال كان من يؤدي بالعامة وغير العامة إلى هياج العزمات

الخليفةُ العباسي السلطان الظاهر بيبرس البلاد الإسلامية بما فيها الحجاز بالتقليد الآتي: " ... وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا..." أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٢١٣؛ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط١ (الرياض)، ١٩٧٦م. ، ص ٩٩-١٠٠؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ٦١-٦٥؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص ٢٥٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، دار احياء التراث ج١٣، ص٢٦٨. وبذلك أصبحت دولة المماليك –التي هزمت التتر وأوقفت زحفهم –صاحبة الفضل على العالم الإسلامي بإحياء الخلافة الإسلامية، عبد المجيد بدوي: الخلفاء العباسيون في ظل دولة المماليك، حوليات دار العلوم، ج٨، ١٩٧٧م، ص ١٨٦- ١٩٠.

(٤٩) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص٣١، ٣٣ ؛ السخاوي: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ ، ج١، ص١١٢.

(٥٠) تحفة النظار، ص ٣١.

وانبعاث الأشواق ... وإذا كان المحمل يدور غالب مصر والقاهرة فهذا معناه أن كل مكان دار فيه يعد بمثابة مكان للإعلام عن عفاريت المحمل وألعابهم[51] خاصة أنه كانت تتكرر هذه الرسوم يوم الدوران مرتين الأولى في أول النهار، ثم يذهبون بالمحمل إلى الفسطاط فيمر، ويدور في وسطه، ثم يعود إلى تحت القلعة بعد الظهر، فيفعل كما في الأول من الاحتفالات والبهجة إلا أنه أقل من الأول. كل ذلك والطبلخانات[52] والكوسات السلطانية تعزف المقاطع الموسيقية خلفه[53]. وبعد الانتهاء من هذه الاحتفالات في رجب يحمل المحمل إلى جامع الحاكم بأمر الله. ويوضع في مكانه هناك إلى شوال[54]. وعلى ذلك يمكن أن نعد جامع الحاكم آخر محطة من محطات احتفالات عفاريت المحمل بالقاهرة خلال شهر رجب.

ثم تكون الدورة الثانية بعد ذلك في أواخر شوال يتكرر دوران المحمل بالصورة التي كان عليها في رجب من الرماحة وعفاريت المحمل ليُضِحكون

(٥١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٦ ص ١٢٣

(٥٢) أي طبول متعددة معها أبواق وزّمارات تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص. تدقّ في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب، وتكون صحبة الطلب في الأسفار والحروب وهي من الآلات العامة لجميع الملوك. وتطلق كلمة الطبلخاناه على بيت الطبل الذي يشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات. وأمير الطبلخاناه هو الذي يرقى إلى درجة يستحق بها أن تضرب الموسيقى على بابه ويكون أمير أربعين ويتدرج في الزيادة إلى الثمانين، ويعد أمير الطبلخاناه في الدرجة الثانية من الأمراء ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة, ج١٠ص١٨٣.

(٥٣) ابن إياس: جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك، تحقيق محمد زينهم، ط١، القاهرة: الدار الثقافية للنشر،٢٠٠٦م.٣٤٥؛ وانظر أيضا: بدائع الزهور، ج٤، ص ٦١.

(٥٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٥٩.

الناس[55]، ويشق المحمل القاهرة ومصر، حتى يراه الناس، ويتبركون به وأمامه الأفيال والطبول والزمور وأمير المحمل له مكانته بين الأمراء والقول المسموع [56]. ثم يخرج بعدها المحمل من تحت القلعة إلى باب النصر، ومنه للريدانية حتى الحجاز بالخريطة المرسومة له في سيره [57]. وهنا ينتهي عمل عفاريت المحمل حتى العام التالي في الموعد الذي تحدده المناداة.

جدير بالذكر أن بعض السلاطين إذا نوى الحج عقد العزم على أخذ بعض " عفاريت المحمل " معه؛ محاولة للترفيه عن الناس من مشقة السير في الصحراء لقاحلة حتى المدينة المنورة[58].

---

(٥٥) ابن تغري بردي: حوادث الدهور ج١ ص ٣٧٩

(٥٦) ابن أيبك، كنز الدرر: ج٩، ص٣٦٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٨٨؛ البتنوني: الرحلة، ص ١٤٤.

(٥٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٦٠.

(٥٨) كانت الرحلة تستغرق أربعة وستين مرحله من مصر للحجاز ذهابًا وإيابًا ولابد أن تسبب التعب الشديد للمسافر لأن وسيلة المواصلات الأشهر آنذاك، كانت الإبل، والإبل التي يمتطيها الفقراء مجردة ليس عليها هوادج ولا محارات.. بعكس حال الأغنياء، وقد وصف ابن الصباح طريق الحاج المصري عبر سيناء بقوله "... فيه مكتوب: الداخل مفقود والخارج كالمولود ، نسير الليل كله ما ننزل إلا القليل في بعض المواضع إلا في مواضع الإقامة نقيم يوماً أو يومين ، ونرحل ونسير في الفيافي والبرارى والمقاطع والرمال والجبال العالية تلحق السحاب وهي جبال الحجاز المشهورة بالعلو والسواد والوعورة والحجارة والعطش والخلاء فلا عمارة ولا طير يطير ولا حس ولا حسيس ولا إنس ولا أنيس ولا خضرة ولا مرعى، تدهش العقول وتذهل الألباب، وتتباغض الأصحاب وتتذاكر الوجوه وتقسو القلوب فلا الكبير يرحم الصغير ولا الغنى يرحم الفقير ويطعم المحتاج ويربح الدنيا والآخرة في تلك المهلكة وأي مهلكة ما رأتها ==

فيذكر المقريزي[59] في حوادث سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م عن عزم الأشرف شعبان(٧٦٤-٧٧٨هـ /١٣٦٣-١٣٨١م) للحج أنه حمل معه عدة من أرباب الملاهي والمخايلين، ممن يعملون في "عفاريت المحمل".

على أية حال، ظل هذا النهج قائما طوال دولة المماليك وكلما كانت الدولة قوية والسلطان كلمته نافذة على مماليكه، وظلت كسوة الكعبة محل افتخار لمماليك القاهرة، لا يرضون لأحدٍ أن ينافسهم عليها، وهذا ما جعل السلاطين المماليك يسخّرون الأموال ويوقفون الأراضي والأموال لصناعتها[60]. وظلت رمزا دينيا يخرج من بينهم؛ ليعلق على أغلى مكان فوق

العيون ولا وصفها الواصفون وكل سفر يهون إلا سفر برية الحجاز فإنه لا يهون، ومن قال أنه لم يعد مرة راكب أو ماش فإنه يكذب بل يعيا الراكب والماشي.. "أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، نشر وتحقيق محمد بنشريفة (الرباط)٢٠٠٨م.، ص ١٢٨ – ١٢٩. وهو هنا يشير إلى صعوبات السير في طريق ركب الحاج والأحوال والمخاطر التي تصادف الحجيج فيه من ناحية، كما يشير إلى أن منصب أمير الحج، وهو المسئول عن القافلة كلها من بشر وماديات، كان منصباً عالياً ومهمة ثقيلة، فالحجاز على بعد مئات من الكيلومترات من الأماكن المنزرعة ، فلا اتصال بريدي منظم، ولا قوة حربية مستمرة، وكان لابد من وضع العطش في الحسبان، وقلة الأدوات، وموت الحيوانات، والأمراض، وسلب الأعراب، وأحياناً المبادرات العدائية لسكان المدن المقدسة.

(٥٩) السلوك ج٣ ق١ صـ٢٧٣.

(٦٠) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٨٩٨؛ السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص٣٤؛ صالح بن حميد : تاريخ أمة في سير أئمة، مركز مكة التاريخي، مكة، ١٤٣٣هـ ج١، ص٥٤؛ والوقف بالحقيقة ليس حكرا على الحرمين الشريفين فقط، فقد أوقف سلاطين المماليك عدة قرى بأعمال الشام والقدس لصرف ريعها في خبز ونعال لمن يرد إلى القدس من المشاة ومبلغ فلوس. مما يبين اهتمام السلاطين بالجوانب الدينية والأماكن المقدسة بداية حكمهم وذلك لجذب العامة إلى أن مقاصدهم العناية الدينية. وليتناقل ==

الأرض. وظل عفاريت المحمل مهمتهم الرئيسة الاحتفال بالكسوة وتعظيم كل ما يذهب إلى الحرمين الشريفين بالحجاز.

ويحق لنا القول: إن سلاطين المماليك اتخذوا القاهرة مكانا للإعلان عن سياستهم الخارجية خاصة الحجاز، فلم تقتصر سياستهم على الاهتمام بالركب الحجازي بالطرق الاحتفالية الكثيرة، وغيرها فحسب بل تعدى الأمر إلى إعلام الناس بكل ما من شأنه خدمة الحجاز والحرمين على وجه الخصوص؛ فقد دأبوا على الدوران بكل ما يحمل إليهما [61]. والدوران هنا معناه وجود عفاريت المحمل ولعبهم أمامه أينما سار ودار داخل مصر. حتى أصبح خروج المحمل

الناس الخبر بينهم. المقريزي، السلوك، ج٢، ص١٤؛ محمد محمد أمين : ازدهار الأوقاف في عصر سلاطين المماليك، مؤتمر أوقاف الأول في المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٢هـ، ص٢٥٧.

(٦١) ومن ذلك الآلات والأخشاب التي جهزها الظاهر بيبرس لعمارة المسجد النبوي بعد حريقه، فطيف بتلك الأخشاب والآلات بالديار المصرية فرحة بها وتعظيما لها، ثم ساروا بها إلى المدينة النبوية ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٨٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ص٤٤٩. وفي السنة نفسها أرسل السلطان الظاهر بيبرس جماعة من الفنيين مصطحبين الاتهم لعمارة المسجد النبوي، وحملت معهم كسوة الكعبة التي طيف بها كالعادة في القاهرة ومصر، ومعها جماعة من كبار الدولة من القضاة والفقهاء والأئمة و الخطباء ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن ايدمر (ت.٨٠٩هـ/١٤٠٦م): نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، تحقيق سمير طبارة، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ. ، ص٢٧٥؛ العيني، بدر الدين محمود(ت.٨٥٥هـ/١٤٥١م): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج١ تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق، (القاهرة)، ٢٠١٠م، ص٩٤؛ السمهودي، علي بن عبدالله(ت.٩١١هـ/١٥٠٥م): خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفي، تحقيق محمد الأمين الجكيني، د. ت، ج٢، ص١٥٥.

الشريف حدثا مهما أرخ بها المؤرخون كتبهم، فقلّ – أو ندر – من لم يكتب عن خروجه، ويصف الأبهة التي خرج عليها[62]. في مسيره كل عام إلى الحجاز[63]. ويصف ابن شداد دوران المحمل بكسوة الكعبة في شوارع القاهرة، بصحبة الطواشي[64] مشد الخزانة[65] أميرا للركب، ويذكر كثرة الناس

(٦٢) الصفدي: نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط١، شركة أبناء شريف الانصاري، بيروت ، ٢٠٠٣م ، ص٢١٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص٤٦٢.

(٦٣) تسيير الركب الى الحجاز في كل سنة. تارة عام، وتارة صحبة الكسوة؛ ابن شداد، سيرة الملك الظاهر، ص ٣٠٣؛ البرزالي: المقتفي ، تحقيق عبد الرحمن العثيمين وآخر، ط١(الأثار الشرقية، عمّان ، ١٤٤٠هـ. ، ج٥، ص٤٠٧.

(64) الطواشي" كلمة تركية تعني الخادم الخصي، وهو لقب شاع في زمن المماليك وكانوا يطلقونه على مجموعة من خدمهم المقربين وكان هؤلاء الطواشية أو «الخصيان» فئة من الرجال منقطعو النسل؛ بهدف العمل داخل قصور السلاطين والتجّار ورجال الدولة , عاشور : العصر المماليكي، ص ٤٤٠.

(٦٥) هو جمال الدين محسن الصالحي النجمي، له أعمال جليلة وسفرات رسمية عديدة، منها هذه الحادثة التي تمثلت بمصاحبة الركب الحامل للرجال والآلات التي أرسلها بيبرس لعمارة المسجد النبوي بعد الحريق. وهو أحد موظفي الدولة الذي اعتمد عليه بمهام عدة، ففي موقعة دمياط أحاط المسلمون بالفرنج فاضطرهم الاستسلام، وطلبوا الأمان فامنهم الطواشي محسن حتى وكل امرهم الى الطواشي صبيح اعتداء الفرنج على دمياط، توفي سنة ٦٦٥هـ، عرف بشيخ الخدام بالمسجد النبوي. والذي يظهر انه استقر بالمدينة بعد سفره هذا، حيث لم تتطرق المصادر إلى ذلك. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٤٥، ج٢، ص٢١٢، ص٤٠٩؛ النويري: نهاية الارب، ج٢٩، ص٣٢٩،٣٣٨، ج٣٠، ص١١٥؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج٢،١٧٨؛ المقريزي: السلوك، ج١ق٢، ص٣٤٢.

المصاحبين للمحمل بما نصه " وكان صحبتهم عالم عظيم لا عدد له"[66].

وقد يتبين مما ذكره ابن شداد بظهور وسائل جديدة هدفها إبراز الجانب السياسي/الديني فيها، ما يؤكد التوجه السياسي عند السلاطين المماليك باتخاذ الكسوة كعنصر سيادي رئيس استفادوا منه طوال حكمهم، وكيفية الأبهة التي خرجت بها، وقرار إرسالها بمرسوم سلطاني يقرأ على الأشهاد من الحضور والحجاج من كافة الأقطار الذين يمرون بالقاهرة، وما يصحبها من أكابر القوم، والجموع الغفيرة ومن ثم يتأكد ذلك بالطواف بها. ويذكر ابن بطوطة سببا آخر لطواف المحمل بأنه وسيلة تدفع الناس إلى عقد نية الحج والحماس إلى زيارة الأماكن المقدسة في الحجاز[67] . وكأنه بهذا الوصف يشير قصداً إلى الهدف السياسي/ الديني من دوران المحمل كل عام، خاصة أنه كان له صور اجتماعية وضحت في عفاريت المحمل والرماحة، ودينية سياسية وضحت في كسوة الكعبة واقتصادية ظهرت في صرر الحرمين. والمهم أن عفاريت المحمل كانت صورة مهمة جدًا لتنفيذ هذا التوجه من خلال إظهار تعظيم متعلقات الحرمين.

(٦٦) ابن شداد: سيرة الملك الظاهر، ص ١٨٦.

(٦٧) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٣١.

مظاهر الاحتفالات التي قام بها "العفاريت" أمام المحمل

يفهم من روايات المصادر المملوكية أن عفاريت المحمل كانت كل ألعابهم واحتفالاتهم هي عمل أشياء بهلوانية لإضحاك المشاركين في دوران المحمل، وكان الناس يسرون بأعمالهم سرورًا زائدًا، ويتغالوا في اكتراء البيوت والحوانيت والأسطحة مغالاة كثيرة لمشاهدة ما يفعلوه من حركات بهلوانية [68].

يؤيد ذلك ما يقوله ابن تغردي بردي في حوادث سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م"... وشرعت عفاريت المحمل تضحك الناس على العادة : وهم جماعة من الأجناد وغيرهم يغيرون صفاتهم، بيئة مزعجة مهولة إلى الغاية، ويركبون خيولًا بالقلاقل والأجراس والشراشح[69] ويعبثون [يضحكون] على العوام" [70].

فكان العفاريت بهذه الهيئة – المزعجة – يقومون بقفزات خطيرة على الأرض، ومنهم من كان محترف للمصارعة، وآخرون مدربون للقردة والدببة والجمال والحمير، والغجر يرقصون على الحبال المشدودة، والحباظية[71]

---

(٦٨) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١ صـ٣٧٨.؛ **Demmbynes،le voile de la ka'ba (paris)1954 ،tome 1،p.11**

(69)القلاقل والاجراس والشراشح هم من لباس الخيل، والمعنى أنهم يلبسونهم للتخفي بغية إضحاك الناس كأنهم خيول.

(٧٠) حوادث الدهور ، صـ٣٧٩.

(٧١) لمزيد من التفاصيل ينظر : إبراهيم حمادة: خيال الظل، تحقيق ودراسة، قصور الثقافة، س الدراسات الشعبية، القاهرة ١٩٩٨م ص ١٤، ٦٤.وهو نوع من المسارح الشعبية، قوامه تحريك مجموعة من الدمى وراء ستارة رقيقة ويقوم بتوقيع إشاراتها وخطواتها، ونقلها من موقف إلى آخر، اختصاصي أو أكثر من غير أن يبدو له أثر على الستارة. وتكون حركاتها مطابقة لمضمون الحوار العامي المسموع، وموافقاً ==

لاعبو خيال الظل الذين يحركون تماثيل بخيوط وراء ستار بيضاء، ويصاحب حركة التماثيل حكايات من التراث[72]، ومنهم من يقوم بدور الحواة الذين يوهمون المتفرجين أنهم يغرزون في جسم أحدهم نصلًا أو رمحًا من الحديد، والمبارزون من فوق الخيول، والمنشدون، والمغنيون، والحكاؤون للسير الشعبية؛ كان كل هؤلاء يعملون عفاريت للمحمل، يحتفلون مع الأهالي، ويمتعونهم بألعابهم [73].

وفي إطار التطور المستمر لألعاب عفاريت المحمل كان بعض العاملين في هذا المجال يريدون أن يجددوا في ألعابهم، وأن يأتوا بأشياء أبعد ما تكون عن عمل عفاريت المحمل السنوية التقليدية التي يعرفها الناس كل عدا التي ألفها الناس خلال دوران المحمل عبر السنين، وفي هذا الصدد تشير المصادر إلى أن بعض عفاريت المحمل كان يربط طرف حبل في مأذنة جامع السلطان حسن، وربط الطرف الآخر في أعلى طباق القلعة، وانتظر مرور المحمل بالقرب من القلعة، ومشى على الحبل على يديه ورجليه بين إعجاب الناس وتهليلهم حتى إذا اقترب من الميدان الذي بين القلعة والمسجد أخذ ينزل على حبل دقيق آخر كان قد ربطه في الحبل الأول، وأخذ يقوم بعرض الحركات المضحكة وهو في طريقه إلى الأرض، والناس المتفرجون على المحمل

للألحان المرافقة له. وهي مصنوعة عادة من الورق المقوى أو الجلد المضغوط. صالح سعد: خيال الظل وفلسفة الحمق، مجلة المسرح، ع٥٣٤، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص٥١: ٥٧.

(٧٢) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢ ص ٧٦؛ لطفي أحمد نصار: وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك، تاريخ المصريين، القاهرة ، ١٩٩٩م، ص ٣٣٦.

(٧٣) أحمد تيمور: خيال الظل واللعب والتماثيل المصورة عند العرب، القاهرة ١٩٥٧، ص ١٧. البقلي، صور عن أدبنا الشعبي، ١٤٨ – ١٥٠.

مبهورين به وبمهارته، وكان من أشهر عفاريت المحمل خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي شخص اسمه "يشبك الجركسي"[74] حيث أشارت المصادر إلى أنه إبان احتفال دوران المحمل كان "يشبك" يمشي على حبل ممدود بين جامع السلطان حسن وقمة قصر الأشرافية في القلعة، وكان أثناء مشيه يرمى بالسهام من قوس صغير، فضمه السلطان إلى المماليك وأنعم عليه وأغدق عليه بعض الأمراء بالدراهم....[75].

ولعل دوران المحمل كان ميدانًا لتنافس العفاريت، إذ صار يشبك الجركسي يتحدى المصريين أن يأتوا بأعماله البهلوانية، مما دفع بأحد الصبية من عامة القاهرة أن ينافسه، وأضاف على فعلة يشبك أنه كان ينام على الحبل المشدود بين نفس المئذنتين، وكان ينزل بحبل إلى الأرض ورأسه لأسفل ثم يعود إلى أعلى بنفس الوضعية[76] .

لم تكن هذه الحركات البهلوانية كل احتفالات عفاريت المحمل، بل جانب منها، إذ تعددت صور احتفالهم، وكان عندهم نظام نصب الحلقة والتي يتعرض للإهانة من يقحمها يقول أبو المحاسن (ابن تغري بردي) : ".... فلما كان يوم المحمل خرج شخص من التجار المشارقة يسمى سليمان على فرس له، وقصد جهة من الجهات، فلما صار في وسط الحلقة قصده عفريت وطعنه

(74) من مسالمة الفرنج وتزيا بزي الأجناد, ولما فعل هذه الحركات البهلوانية, خلع عليه السلطان, وبعثه للأمراء, فما منهم إلا من أنعم عليه, المقريزي, السلوك, ج٤ق٢ ص٧١٣.

(٧٥) المقريزي: السلوك ج٤ق٢ص ٧١٣؛ ابن حجر : أنباء الغمر، ج٣ ص ٣٤٨؛ لطفي أحمد نصار: وسائل الترفيه ص ٢٧٨- ٢٨٠.

(٧٦) المقريزي: السلوك، ج٤ق٢ صـ٧١٦ ؛ أيمن عثمان: موسوعة تراث نصر، ج٢ صـ٧٦. Jomier، J. Le Mahmal et la CaravaneEgyptienne،p.

برمحه حتى رماه عن فرسه، بعد أمور وقعت بينهما، فضحك الناس من ذلك فقال في هذا المعنى شخص من الفضلاء بيتين وأنشد فيهما من لفظه.

أرى كل شيء يستحيل بضده ولم أر شيء في الزمان كما كان

سليمان كم أرمى العفاريت في بلاد وعفريت هذا الدهر أرمى سليمانًا.."[77].

ظل احتفال عفاريت المحمل يحقق هدفه المنشود في أوساط الرعية من المصريين، من إضحاك العوام وتعظيم المحمل وحجاج الحرمين، ومن جانبهم ظل المصريون ينثرون العملات المعدنية على العفاريت تحية لهم وإعجابًا وحبًا [78]، وربما كان الناثرون على يقين أن الأموال المنثورة سترد إلى أصحابها أضعافًا مضاعفة بركة المحمل والكسوة الشريفة [79].

وكانت عبارات المؤرخين الدالة على ذلك تأتي منتظمة طالما كان السلطان قويًا، والحياة السياسية مستقرة، والحالة الاقتصادية جيدة، وكان تأتي عبارة "دار المحمل بالقاهرة ومصر على العادة في كل سنة"[80]. وكذلك

(77) حوادث الدهور، ص٤٤٥؛وانظر أيضا: الجزيري، عبدالقادر بن محمد الأنصاري، (ت.٩٧٧هـ/١٥٦٩م): الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق:محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت،(ب.ت)،ج١ صـ٤٦٢.

(٧٨) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٦ صـ١٢٣.

(٧٩) أيمن عثمان، موسوعة تراث مصر ، ج٢ صـ٨٠.

(٨٠) ابن حجر، انباء الغمر ،ج١ ص٢٧٧ ؛ابن الصيرفي ، علي بن داود الجوهري (ت. ٩٠٠هـ/١٤٩٤م): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، ط٢، دار الكتب والوثائق، ٢٠١٠م. ،ج١ ص٧٤

"وساقوا الرماحة على جاري العادة، ... وزينت القاهرة زينة حافلة"[81]، أو " وكان حافلاً والجمع وافر " [82].

انحراف عفاريت المحمل عن هدفها:

ذكرنا آنفًا أن عفاريت المحمل هم "..... جماعة من الأجناد وغيرهم..."[83] والحق أن الأجناد ممن عملوا "عفاريت المحمل، طوال العصر الأول، قدموا أروع الأمثلة في تبجيل يوم المحمل ودليل ذلك عبارات المؤرخين المؤيدة لحسن عملهم، مثل " وسر الناس بذلك"[84] . أو "وفرح الناس بذلك فرحاً كبيراً"[85]. "وكانت بهجة زائدة في هذه السنة... وفرح الناس فرحاً زائداً[86]" وهو ما يعني أنه لا يوجد أي شائبة، كما أنه لا توجد حادثة واحدة أشارت إليها المصادر عن تجاوز حدث يوم دوران المحمل من قبل عفاريت المحمل في العصر الأول.

وقد انعكس هذا الأمر كله في العصر الثاني وصار الناس في عصر المماليك الجراكسة يتمنون أن ينقضي يوم المحمل ليستريحوا من أعمال عفاريت المحمل، وبعد أن كان المصريون ينتظرون أيام المحمل ويأتون من

---

(٨١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ١٤٠.

(٨٢) ابن حجر، انباء الغمر ، ج٤، ص ١٠٣، ١٤٢، ١٦٢ ؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس ، ج٤، ص ١٦٣.

(٨٣) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١ صـ٣٧٩.

(٨٤)المقريزي : الســـلوك، ج٣ ص ٤٤١؛ ابن حجر: انباء الغمر ، ج٤، ص ١٠٣، ١٤٢، ١٦٢؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس ، ج٤، ص ١٦٣.

(٨٥) ابن إياس: بدائع الزهور ، ج٤، ص ٥٩ ٦٢.

(٨٦) ابن إياس: بدائع الزهور ، ج٢، ص ١٤٠.

الأرياف لمشاهدتها صاروا يبتهلون إلى الله بزواله [87]، لدرجة أن العلماء طلبوا من السلطان برسباي سنة ٨٣١هـ/١٤٢٧م أن يبطل إدارة المحمل حسمًا لمادة الفساد التي جرت العادة بوقوعها من قبل الأجناد "العفاريت المحمل"[88]، وذلك أن من يعملون عفاريت المحمل من الأجناد صاروا يصفعون أقفية من يمر بالشوارع ويحرقون لحاهم بالنار ويخطفون عمائمهم ويفعلون أفعالًا قبيحة[89]، وكانت العبارة الدارجة في كتابات المؤرخين في غالب السنوات عصر الجراكسة "وحصل على المسلمين ليلة إدارته مالا يوصف" [90]، أو "وفي رحب دار المحمل على العادة، فحصل للناس غاية الفساد من مماليك السلطان، فتعرضت القضاة بإبطال ذلك"[91]، وأصبح أمرًا عاديًا أن نقرأ عبارة أدير محمل الحاج، فكان فيه من نهب عفاريت المحمل لمآكل الباعة، والتعرض للنساء والشباب في ليالي الزينة شناعا.[92]

وبسبب كل هذه التجاوزات فكر السلطان برسباي في قتل المماليك القائمين على أمر "عفاريت المحمل" وشجعه على ذلك نائب الشام سودون بن عبد الرحمن، وقال له : ".....ضع فيهم السيف وأقم عوضهم، وما دام رأسك تعيش فالمماليك كثير ... وكان سبب ذلك أنهم صاروا يضربون مباشري الدولة وينهبون بسيوفهم، ووقع منهم في دوران المحمل في هذه السنة أمورًا

(٨٧) ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣ صـ ١٥٥.

(٨٨) ابن حجر: انباء الغمر، ج٣ صـ٤٠٢.

(٨٩) ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج٣ صـ٣٨٠ – ٣٨١.

(٩٠) ابن الصيرفي، نزهة النفوس ج٣ صـ٣٨٠ – ٣٨١.

(٩١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢ صـ٢٨ حوادث سنة ٨١٩هـ.

(٩٢) المقريزي: السلوك، ج٤ ق٢ صـ٨٨٩ حوادث سنة ٨٣٦هـ .

شنيعة إلى الغاية... [93]، وصار أمر هجوم العفاريت إبان دوران المحمل على المطاعم ونهبها، وتعرضهم للنساء والشباب في ليالي الزينة، من الأخبار التي حافظت المصادر على نقلها [94].

وتشير المصادر إلى الحالة التي صارت عليها احتفالات عفاريت المحمل في العقود الأخيرة من العصر المملوكي بأنه إذا نودي بزينة القارة لدوران المحمل أن يسارع السلطان وينهى المماليك الأجلاب عن أن يعمل أحد منهم عفاريت المحمل، وسببه أنههم يفعلوا من القبائح، وأفحشوا في الطلب من الناس، وصاروا يدخلون إلى دور الأمراء والأعيان ويكلفونهم الكلفة الزائدة، ليس هذا فقط، بل صار "العفريت" منهم إذا مر بالشارع وعلى فرسه بتلك الهيئة المزعجة يجبى الدكاكين، وإذا صدف رئيسًا من بياض الناس[95] أمسكه وأخذ منه ما شاء غضبًا، وإن لم يعطه أخرق به ورماه عن فرسه، حتى صار الرجل إذا رأى واحدًا من هؤلاء أسرع في مشيه بالدخول في زقاق من الأزقة، أو بيت من البيوت، فضر ذلك بحال الناس كثيرًا، وتركوا فرجة المحمل، بل صاروا يترقبون فراغ المحمل، ليستربحوا من تلك الأنواع القبيحة[96]. لذلك لما جاء أوان دوران المحمل سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٧م دخل على قلوب الناس الرجيف

(٩٣) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٤ صـ٣٢٦ ، ٣٢٧، حوادث سنة ٨٣٢هـ.

(٩٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢ صـ١٢٤؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس صـ١٠٠.

(٩٥) بياض الناس" هم مياسير التجار، وقد نعم هؤلاء بالغنى والثروة ، حتى أصبح لهم مركز ممتاز بين طبقات الشعب – وبطبيعة الحال لم تصل مكانتهم تلك لمكانة جندي من جنود المماليك مهما بلغوا من الثراء حتى كان كبار تجارهم يطلق عليهم بياض العامة تميزا لهم عن فئات الرعية الأخرى. المقريزي: الخطط ، ج٢ص ٣٥٥(طبعة مؤسسة الفرقان).

(٩٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦ صـ١٢٣.

بسبب "العفاريت المماليك" فكلم أعيان الدولة السلطان في إبطال المحمل، ونهى الجلبان عن تلك الفعلة القبيحة، فلهذا رسم السلطان في هذه السنة بإبطال عفاريت المحمل بالكلية [97] أي أن السلطان أبطل عمل عفاريت المحمل التي يقوم بها العامة والأخرى التي يقوم بها الأجناد والمماليك.

ولما قاست الناس الشدائد من "العفاريت" سنة ٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م[98] دفع ذلك الظاهر خشقدم إلى إلغاء لعب الرماحة والعفاريت نهائيًا إبان دوران المحمل وذلك من "... سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة.... ونسى هذا الفن من يومئذ..".

ثم عاد ظهور العفاريت مرة أخرى إلى الاحتفال بعد ست وثلاثين سنة أي سنة ٩٠٩هـ/١٥٠٣م إذا أراد السلطان الغوري أن يجدد هذا الأمر حتى يصير له التذكار بين الملوك بتجديد هذا الفن (الرماحة والعفاريت)، "... فعد ذلك من محاسن الغوري حيث فرج الناس على أشياء كانت قد نسيت فجددها..."[99]، وتكرر الأمر سنة ٩١٠هـ/١٥٠٤م [100]، ومع عودة العفاريت عادت الضحكة على الوجوه بفعل ملابس وألوان العفاريت وألاعيبهم وتمثيلهم وحركاتهم البهلوانية، ونثرت عليهم الهبات المالية من جديد؛ غير أن هذا الأمر لم يدم طويلًا مما هي إلى سنين عدة وسقطت دولة المماليك تحت سنابك الخيول العثمانية.

---

(٩٧) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦ صـ١٢٣.

(٩٨) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦ صـ٢٨٨.

(٩٩) ابن إياس: بدائع الزهور ، ج٤ صـ٦١.

(١٠٠) ابن إياس: بدائع الزهور ، ج٤ صـ٦٦.

الخاتمة

وفي الختام يمكن القول إن عفاريت المحمل من إبداع المماليك في ظل بحثهم المستمر عن تدعيم شرعيتهم وتسربلهم برداء الدين.

وطالما كانت الدولة قوية استطاع السلطان فرض هيمنته على المماليك وأن تخرج الاحتفالات في صورة طيبة تعددت صورها وأماكنها .

حين أخذت الدولة رحلتها نحو السقوط وخرجت سيطرة السلاطين على الجلبان بسبب تغير نظام الجندية المملوكي من الأطفال الصغار إلى الجلبان البالغين الكبار، انحرفت عفاريت المحمل عن هدفها، وظلت عفاريت المحمل مرهونة بقوة السلطان .

أضف إلى ذلك أن احتفالات عفاريت المحمل اتفقت مع الدوران الرئيس للمحمل في الزمان والمكان .

للمماليك الفضل في ظهور كثير من الرسوم العامة لاحتفالات الحج عامة وعفاريت المحمل خاصة، حيث كانت الأخيرة إفرازا للتطور المستمر لطقس الاحتفال.

صارت مناسبة احتفالات عفاريت المحمل من أيام الاحتفالات الشهيرة في العصر المملوكي، وقد كانت مشاهدة العفريت ساعة الاحتفال من المشاهد المحببة لنفوس مختلف الطبقات.

كان هدف عفاريت المحمل التنفيس عن الناس مع تعظيم السلطان وإجلاله، فضلاً عن ترغيب الناس وحثهم على أداء فريضة الحج , كما أنها محاولة للمماليك من وراء ذلك كسب مكانة دينية وسياسية، تسهم في دعم مركزهم السياسي، كأعظم قوة إسلامية آنذاك.

نجح المماليك بهذه الفكرة في توثيق صلاتهم بشعبهم حيث حرص المصريون على اختلاف مشاربهم على المشاركة في احتفالات "العفاريت"، ومن جانبهم تفنن سلاطين المماليك بكل الطرق، في ابتكار طقوس مميزة لها، لما يمثله الحج من أهمية وقداسة خاصة في حياة المسلمين عموماً

قائمة المصادر والمراجع

أولا المصادر :

- ابن إياس، محمد بن إياس الحنفي (ت٩٣٠هـ/١٥٢٣م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، دار الكتب، القاهرة، ٢٠٠٩م
- ـــــــــــ، جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك، تحقيق محمد زينهم، ط١، الدار الثقافية للنشر (القاهرة)، ٢٠٠٦م.
- ابن أيبك، أبو بكر عبد الله بن أيبك (ت.٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء التاسع المسمى "الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر" تحقيق هانس روبرت رويمر، (القاهرة)، ١٩٦٠م.
- البرزالي، علم الدين القاسم بن محمد (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م) المقتفي لتاريخ أبي شامة، تحقيق عبد الرحمن العثيمين وآخر، ط١(الأثار الشرقية، عمَان، ١٤٤٠هـ.
- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت. ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، رحلته، المعروفة بـ "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب السفار"، تحقيق محمد السعيد الزيني، المكتبة التوفيقية، (القاهرة)، د.ت
- بيبرس الدوادار، نائب السلطنة في مصر (ت. ٧٢٥هـ/١٣٢٤م) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالد س. ريتشارد. ز، ط١، سنشر جمعية المستشرقين الألمانية (بيروت)١٩٩٨م
- ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف (ت. ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ج١ تحقيق فهيم شلتوت، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، (القاهرة) ١٩٩٠م

- ـــــــــــ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الأجزاء من ١- ١٢ تحقيق القسم الأدبي بدار الكتب، ج١٣ تحقيق فهيم شلتوت (القاهرة)، ١٩٧٠م. ج١٤، تحقيق فهيم شلتوت وجمال محرز (القاهرة)، ١٩٧١م. ج١٥ تحقيق إبراهيم طرخان، (القاهرة) ١٩٧١م. ج١٦ تحقيق جمال الشيال وفهيم شلتوت (القاهرة)، ١٩٧٢م.
- الجزيري، عبدالقادر بن محمد الأنصاري،(ت.٩٧٧هـ/١٥٦٩م): الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت،(ب.ت).
- ابن حبيب: هو الحسن عمر بن حبيب (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، درة الأسلاك في دولة الأتراك، تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتب القومية، القاهرة، ٢٠١٤م
- ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد، (ت. ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (القاهرة)، ٢٠٠٩م.
- الخزرجي، علي بن الحسين (ت. ٨١٣هـ/١٤١٠م)، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق محمد بن على الأكوع، ط٢، مركز الدراسات والبحوث اليمني (صنعاء)، ١٩٨٣م.
- ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن ايدمر (ت:٨٠٩هـ/١٤٠٦م)، نزهة الانام في تاريخ الاسلام، تحقيق سمير طبارة، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ.

- السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن بكر (ت. ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، التبر المسبوك في ذيل السلوك، تحقيق لبيبة إبراهيم ونجوى مصطفى، دار الكتب والوثائق، (القاهرة)، ٢٠٠٧م
- ـــــ، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ.
- ـــــ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة الحياة (بيروت) د.ت.
- السمهودي، علي بن عبد الله بن أحمد الحسني (ت: ٩١١هـ/١٥٠٥م)، خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد الأمين الجكيني، د. ت.
- أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل، (ت. ٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، الذيل على الروضتين، تحقيق السيد عزت العطار، ط٢، دار الجيل (بيروت)، ١٩٧٤م.
- ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم (ت. ٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط، الهيئة العامة لقصور الثقافة، س الذخائر (القاهرة)، ٢٠٠٩م.
- ابن الصباح ، عبدالله : أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار ، نشر وتحقيق محمد بنشريفة (الرباط)٢٠٠٨م.
- ابن صصري ،محمد بن محمد (ت٧٩٩هـ/١٣٩٦م)،الدرة المضية في الدولة الظاهرية ،تحقيق وليم .م، برنيز (كالفورنيا)١٩٦٣م.
- الصفدي الحسَن بن أبي محمّد عبد الله بن عمر بن محاسن بن عبد الكريم الهَاشِمِي العبّاسي الصَّفَدِي (المتوفى: بعد ٧١٧ هـ/١٣١٧م) : نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط١، شركة أبناء شريف الانصاري، بيروت ، ٢٠٠٣م.

- ابن الصيرفي، علي بن داود الجوهري (ت. ٩٠٠هـ/١٤٩٤م)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، ط٢، دار الكتب والوثائق، ٢٠١٠م.
- ابن عبد الظاهر، محيي الدين (ت. ٦٩٢هـ/١٢٩٢م)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط١ (الرياض)، ١٩٧٦م.
- ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا، ومحمد كامل المهندس، ط٢، دار الكتب والوثائق، ٢٠٠٩م.
- ابن العماد، عبد الحي بن احمد بن محمد العكري الدمشقي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ،تحقيق محمود الأرناؤوط،ط١،دار ابن كثير (بيروت)١٩٨٨م.
- العيني، بدر الدين محمود، (ت. ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، حوادث من ٦٤٨– ٧٠٧هـ تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق، (القاهرة)، ٢٠١٠م.
- الفاسي، محمد بن أحمد (ت:٨٣٢هـ/١٤٢٨م)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ.
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل (ت. ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، المختصر في أخبار البشر، تحقيق محمد زينهم عزب، ويحيى سيد حسين، دار المعارف (القاهرة)، ١٩٩٩م

- ابن فهد، نجم الدين عمر بن محمد بن محمد (ت. ٨٨٥هـ/١٤٨٠م)، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، الأجزاء ١- ٣ تحقيق فهيم شلتوت، مركز البحث العلمي وإحياء التراث ١٩٨٤.
- القلقشندي : أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م) صبح الأعشي في صناعة الإنشاء ، الأجزاء (١ – ١٤) ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، (١٩١٣ – ١٩١٩)
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي (ت: ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، ط١، دار إحياء التراث، ١٤٠٨هـ.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت. ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، لجنة التأليف والترجمة (القاهرة)، ١٩٥٥م.
- ـــــ، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور، ط٣، دار الكتب والوثائق، (القاهرة)، ٢٠٠٩م.
- ـــــ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الآداب، (القاهرة)، ١٩٩٦م. وطبعة مؤسسة الفرقان
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت. ٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق نجيب فواز، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية (بيروت)، ٢٠٠٤م
- الهاشمي، الحسن بن عبد الله (ت: بعد٧١٧هـ/١٣١٧م)، نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط١، شركة أبناء شريف الانصاري، بيروت ، ٢٠٠٣م

- ابن واصل، جمال الدين محمد سالم (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م)مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ،الاجزاء ١-٣ تحقيق جمال الشيال و٤-٥ تحقيق حسنين ربيع وعاشور ،المطبعة الأميرية (القاهرة)١٩٥٧م
- ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر بن عمر، (ت. ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، تتمة المختصر في أخبار البشر، (القاهرة)، ١٢٨٥هـ
- اليونيني،قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد بن أحمد بن قطب الدين،(ت.٧٢٦هـ/١٣٢٦م) ذيل مرآة الزمان، حيد آباد، ١٩٥٤م.
- ثانيًا المراجع
- إبراهيم حمادة، خيال الظل، تحقيق ودراسة، قصور الثقافة، س الدراسات الشعبية، القاهرة ١٩٩٨م
- أحمد تيمور، خيال الظل واللعب والتماثيل المصورة عند العرب، القاهرة ١٩٥٧.
- إيمان عمر شكر ،برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة ،ط١،مكتبة مدبولي(القاهرة)٢٠٠٢م
- أيمن فؤاد سيد ، الدولة الفاطمية في مصر : تفسير جديد ، مكتبة الأسرة(القاهرة)٢٠٠٧م
- أيمن عثمان ، موسوعة تراث مصر، دار دون، القاهرة ، ٢٠١٧م
- جوانفيل، سيرة القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة محمد مصطفى زيادة، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٨م

- ريتشارد مورتيل ، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ط١ ،الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤٠٥هـ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ط٣، الأنجلو مصرية، (القاهرة)، ١٩٩٤م.
- ـــــــــ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، (القاهرة)، ١٩٩٢م.
- سلام شافعي محمود ، أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول ، مجموعة تاريخ المصريين ، ٧٥ ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥ م ،
- السيد صلاح الدبيكي، أولاد الناس في عصر سلاطين المماليك، دار عين، القاهرة، ٢٠١٦م .
- شوقي ضيف، الفكاهة في مصر ، القاهرة، ١٩٨٥م .
- صالح عبد الله ابن حميد، تاريخ امة في سيرة أئمة (تراجم لائمة الحرمين الشريفين وخطبائهما منذ عهد النبوة الى سنة ١٤٣٢هـ)، مركز مكة التاريخي، مكة، ١٤٣٣هـ.
- عبد الله عنقاوي ، المحمل نشأته وآراء المؤرخين فيه، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، مج٢، سنة٢، ١٣٩٢هـ
- عبدالقادر أحمد طليمات ، وثائق القلقشندي في صبح الأعشى (ضمن ابو العاس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى ،تقديم احمد عزي عبدالكريم ،دار الكتب، القاهرة

- عبد المجيد بدوي، الخلفاء العباسيون في ظل دولة المماليك، حوليات دار العلوم، ج٨، ١٩٧٧م.
- عبدالمنعم ماجد، نظم ورسوم الفاطميين في مصر ، ، ط ٣ ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٨م
- قاسم عبده قاسم ، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، دار الشروق (القاهرة)، ١٩٩٤م
- ـــــ، قراءة التاريخ تطور الفكر والمنهج، ط١، دار عين (القاهرة)، ٢٠٠٩م.
- لطفي أحمد نصار، وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك، تاريخ المصريين القاهرة ، ١٩٩٩م .
- ليلى عبدالجواد إسماعيل, بولاق في عصر دولة المماليك الجراكسة, دار الثقافة العربية, القاهرة, ٢٠٠٧م.
- محمد قنديل البقلي، صور من أدبنا الشعبي أو الفولكلور المصري، الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٦٢م.
- محمد لبيب البتنوني ، الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي الثاني باشا، ط٣، الهيئة العامة للكتاب، (القاهرة)، ٢٠٠٨م.
- محمد محمد أمين : السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب (رسالة ماجستير غير منشورة بآداب القاهرة ١٩٦٨م
- ـــــــــ ، ازدهار الأوقاف في عصر سلاطين المماليك، مؤتمر أوقاف الأول في المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٢هـ.

- محمد مصطفى زيادة: بعض ملاحظات تجديده في تاريخ دولة المماليك أداب القاهرة المجلد ٤ ١٩٣٦م
- ـــــــــــ ، المؤرخون في مصر في القرن ١٥م، ط٢، (القاهرة)، ١٩٥٤م.
- محمود شاكر ، التاريخ الإسلامي (العهد المملوكي)، ط٥(دمشق: المكتب الإسلامي،١٤٢١هـ).
- نظير حسان سعداوي، صور ومظالم من عصر المماليك، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٦٦م.
- نهلة أنيس: أولاد الناس بمجتمع عصر سلاطين المماليك،دار الكتاب الجامعي, القاهرة, ٢٠٠٣م

Demmbynes،le voile de la ka'ba (paris)1954

Fabri،F . Le voyage en Egypte de feliexfabri،(ed) masson،j.s .paris، 1957،

Jomier، J. Le Mahmal et la CaravaneEgyptienne des Pelerins de la mecque (Le Caire)، 1953

HoworthAhistory of Mangols،(london)1881 .